المملكة العربية السعودية
الرئاسة العامة لتعليم البنات
الادارة العامة للتطوير التربوي
شعبة الكتب المدرسية

قررت الرئاسة العامة لتعليم البنات تدريس هذا الكتاب وطبعه على نفقتها

مقرر



علم التوحيد

وفق المنهج الجديد

للصف الثاني الثانوى

تأليف

محمد قطب

الطبعة السادسة
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

يوزع مجاناً ولا يباع

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

الحمد لله الذي أسبغ على الإنسان نعمه ظاهرة و باطنة، و يسر له سبل الهداية فأودع في فطرته المعرفة بالله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ سورة الأعراف. آية ١٧٢.

ثم أرسل رسله صلوات الله وسلامه عليهم ليبلغوا الناس ما أمرهم الله به من إخلاص العبادة له وحده دون شريك:

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ سورة الأعراف. آية ٥٩

وأنزل الكتب تحمل الهدى للناس. لتستقيم حياتهم على المنهج الحق: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ﴾ سورة الحديد، آية ٢٥.

نحمده ونستغفره ونستهديه، ونصلي ونسلم على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

و بعد ... فقد قدمنا من قبل كتاباً في التوحيد يشمل مقرر الصف الأول الثانوي تحدثنا فيه عن موضوع الإيمان بالله وما يقتضيه هذا الإيمان من طاعة وعبودية لله، وتنفيذاً لشريعته في أمور العبادة و واقع الحياة.

واليوم نقدم هذا الكتاب للصف الثاني الثانوي نتناول فيه الموضوعات المقررة عليهم، وهي في الواقع استمرار لما درسوه في الصف الأول. و يشمل ثلاثة موضوعات رئيسية:

١ - الإنـحـراف عن الإيمان والتوحيد، و يتناول الشرك والإلحاد وآثارهما في نفس الإنسان وفي واقع البشر في العصر الحاضر بصفة خاصة.
٢ - الإيمان بالملائكة.
٣ - الإيمان بالكتب السماو ية.

وقـد حـاولـت فـيـه أن أسير على النهج المبسط الذي راعيته في مقرر الصف الأ ول حتى يـكـون مـيـسـراً لـطـلاب الـعلم في المرحلة الثانو ية، وحتى يستطيعوا أن يقوِّموا واقع البشرية المعاصر على ضوء من أصول دينهم كما هي مبينة في كتاب ر بهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم.

ندعو الله أن يلهمنا الصواب و يوفقنا إلى العمل بما يحبه و يرضاه.

والله ولي التوفيـــق

محمد قطب

الباب الأول

الانحراف عن الإيمان والتوحيد

الشرك والإلحاد



الانحراف عن الإيمان والتوحيد
الشرك والإلحاد

الشرك والإلحاد كلاهما انحراف عن الإيمان والتوحيد. والفرق بينهما أن المشرك يعرف أن هناك إلهاً خالقاً لهذا الكون ولكنه يشرك به في العبادة، فيعبد آلهة أخرى مع الله أو من دون الله، يقدم لها شعائر التعبد، أو يتوجه إليها بالدعاء، أو بالطاعة والاتباع، أو بالمحبة والولاء، ويجعلها واسطة بينه و بين ربه .. أما الملحد - في اصطلاح المعاصرين اليوم - فهو الذي ينكر وجود الله أصلا و ينسب الخلق والموت والحياة لغير الله.

والشرك والإلحاد كلاهما انتكاس يصيب البشر حين ينحدرون إلى الجاهلية، فينحرفون عن الفطرة السوية التي خلقهم الله عليها. وإن كان الانحراف الغالب على البشر في جاهلياتهم خلال عصور التاريخ المختلفة هو الشرك. والنادر هو الإلحاد، فيما عدا الجاهلية المعاصرة التي انحدر الناس إليها في العصر الحاضر والتي غلب عليها الإلحاد بصورة لا مثيل لها في التاريخ من قبل، بسبب بعض العوامل التي سنتعرض لها بشيء من التفصيل على صفحات الكتاب.

والقرآن يشير إلى هذا الانتكاس في قوله تعالى:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

سورة التين، الآيات ٤، ٥، ٦.

كما يبين القرآن أن الأصل في الناس هو الإيمان والتوحيد، فإن الله قد أشهد البشر جميعاً على أنه هو وحده ربهم بدون شريك، وهم في عالم الذر قبل أن يولدوا:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ سورة الأعراف، الآيات ١٧٢-١٧٤ .

والآيات تدل على أن الله قد ألهم البشرية كلها بأنه هو ربها وإلهها . وأنه ليس لها رب ولا إله غيره . وأنه أخذ عليها ميثاقاً بذلك : « قالوا: بلى ، شهدنا ! » . فلم يعد يقبل منهم أن يقولوا يوم القيامة: نسينا وكنا غافلين عن هذا الميثاق ! أو يحتجوا بأن آباءهم أشركوا وأنهم اتبعوهم في شركهم لأنهم من ذريتهم ! فشرك الآباء لا يبرر للأبناء أن يحيدوا عن ميثاق الفطرة، لأنه عهد بينهم و بين الله ولا دخل للآباء فيه ! وإن كان الله من رحمته ان لا يحاسب الناس بميثاق الفطرة وحده . وإنما يحاسبهم بعد تذكرتهم على يد الرسل :

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ﴾ سورة النساء، آية ١٦٥ .

ولا يعذبهم حتى يبعث لم رسولا يبلغهم:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ سورة الإسراء، آية ١٥

كذلك يحدثنا القرآن في سورة الروم عن أمر الفطرة:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ سورة الروم، الآيتان ٣٠، ٣١ .

فهاتان الآيتان تدلان على أن الدين القيم ــ وهو توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده دون شريك ــ هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم يحدثنا بأن الإسلام ــ أي إسلام الوجه لله وعبادته وحده دون سواه ــ هو دين الفطرة، إذ يقول عليه الصلاة والسلام:
«ما من مولود إلا يولد على الفطرة(١)، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» متفق عليه .

بل إن القرآن يحدثنا أن الكون كله، وليس الإنسان وحده، مفطور على عبادة الله، بسماواته وأرضه، وشمسه وقمره، ونجومه وجباله، ودوابه وشجره:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ سورة الحج، آية ١٨ .

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ سورة النحل، آية ٤٩ .

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾﴾
سورة الرعد، آية ١٥ .

فالتوجه لله بالعبادة ــ الذي تشير إليه الآيات بالسجود لأن السجود أبرز علامات العبادة ــ هو فطرة الكون كله، الذي فطره الله على عبادته وطاعته:

---

(١) أي على الاسلام .

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾

سورة فصلت، آية ١١ .

والإنسان خَلْقٌ من خلق الله، مفطور مثل بقية الكون على التوجه لله بالعبادة. ولكن الله كرَّمه وفضَّله على كثير ممن خلق، ومنحه الوعي والإدراك وحرية الاختيار: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾

سورة الإسراء، آية ٧٠

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا. إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾

سورة الإنسان، الآيتان ٢، ٣ .

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

سورة النحل، آية ٧٨ .

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾

سورة البلد، الآيتان ٨ ـ ١٠ .

ولكن الإنسان ـ بسبب هذا التكريم ذاته ـ قد اختلف أمره. فبقى بعضه على الفطرة السوية التي خلقه الله عليها، أى بقى متجهاً بالعبادة لله وحده دون شريك. وضل بعضه فوقع في الشرك والإلحاد.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ

سورة الحج، آية ١٨ .

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا

سورة الشمس، ٧ ـ ١٠ .

فأما الذين استقاموا على الدين القيم فعبدوا الله وحده دون شريك . فهؤلاء ظلوا كما فطرهم الله «في أحسن تقويم» وأما الذين انحرفوا عن العبادة الصحيحة بشرك أو إلحاد فقد انتكسوا فأصبحوا «أسفل سافلين» ولم يعودوا يستحقون التكريم الإلهي الذي منَّ الله به على الإنسان، بل أصبحوا موضع الإهانة عند الله: «ومن يهن الله فما له من مكرم» واستحقوا غضب الله ولعنته . ولأنهم قابلوا الإحسان الرباني بالإساءة، وقابلوا النعمة بالكفران! .

والآن بعد أن عرفنا ذلك نعود فنتكلم عن الشرك والإلحاد كل على حدة .

الشـــرك ــ أسبابه ودوافعه

إذا عـرفـنـا أن الـشـرك انـتـكـاسـة تصيب الفطرة، ومرض يصيب القلب، فلنحاول أن نتعرف على أسبابه كما يحاول الطبيب أن يتعرف على أسباب المرض الجسدي ليعالجه .

فـالأصـل في الجـسـد هـو السلامة والصحة، ولكنه عرضة للإصابة بالمرض إذا لم يحافظ الإنـسـان على أسـبـاب الـصـحـة، وعـرضـة لأن يـتمكن منه المرض و يستفحل إذا لم يأخذ الإنسان بأسباب العلاج .

والـنـفـس الإنـسـانية كذلك، الأصل فيها هو السلامة والصحة، ولكنها عرضة للإصابة بـالمرض إذا ترك الإنسان نفسه بغير مراقبة دائمة لأعماله ووزنها بالميزان الصحيح . أو بعبارة أخـرى إذا غفل الإنسان عن ذكر الله فوسوس له الشيطان وأبعده عن الطريق . وهي عرضة كـذلك لأن يتمكن منها المرض و يستفحل إذا لم يسارع الإنسان إلى التوبة لله والإنابة إليه والعودة إلى طريقه . فيصبح عندئذ ممن يقول عنهم القرآن الكريم:

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ سورة البقرة، آية ١٠ .

وهـذا المـرض الـذي يـصـيـب الـقـلـب لـه جملة أسباب ودوافع، بينتها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، نستعرض جانباً منها فيما يلي:

١ ـ الإعجاب والتعظيم:

فـطـرت الـنـفـس الـبشرية على الإعجاب بالبطولة والعظمة والأشياء الضخمة والأشياء الخـارقة . وهذا الإعجاب وما ينشأ عنه من التعظيم ليس عيباً في ذاته، ولا ينشأ منه ضرر في النفس السوية . بل إنه مطلوب في أحيان كثيرة .

فإعجاب الابن بوالديه وتعظيمهما أمر طبيعي، وأمر مطلوب كذلك . يقول القرآن:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾

سورة الإسراء، ٢٣ - ٢٤ .

وتعظيم النبي المرسل مطلوب كذلك:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ سورة النساء، الآية ٦٤ .

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ سورة النور، الآية ٦٣ .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ سورة الحجرات ٢ - ٣ .

وتعظيم العلماء والصالحين من الأمة واجب:

«العلماء ورثة الأنبياء» رواه البخاري .

«ليس منّا من لم يوقر كبيرنا و يعرف لعالمنا فضله» رواه أحمد .

ولكن الانحراف ينشأ من زيادة التعظيم حتى يصل إلى التقديس، فهنا يدخل في دائرة الشرك . لأن التقديس لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى وحده بغير شريك . وكل تعظيم وصل إلى حد التقديس، سواء كان لشخص أو لشيء ما في هذا الوجود فهو شرك، لأنه توجه لغير الله بما لا ينبغي إلا له .

ومن هذا اللون من الانحراف نشأ كثير من الشرك في تاريخ البشرية، مما أشار إليه

القرآن والأحاديث النبوية .

يقول القرآن الكريم في سورة نوح: قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا

سورة نوح، ٢١ - ٢٣ .

و يقول ابن كثير في التفسير: «وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس: هذه أصنام كانت تعبد في زمن نوح . وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس: «و يغوث و يعوق ونسرا» قال كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم . فصوروهم . فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم و بهم يُسْقَون المطر فعبدوهم . (تفسير ابن كثير في سورة نوح) .

كذلك وقع فريق من المنحرفين في الشرك بتقديس أنبيائهم:

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ

سور التوبة، الآية ٣٠ .

كذلك وقعوا في تقديس أحبارهم ورهبانهم:

اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

سورة التوبة، الآية ٣١.

ووقع بعضهم في الشرك بسبب تعظيم الملائكة والجن ـ وهم خَلْق من خلق الله ـ فزعموا أنهم أبناء الله و بناته وقدسوهم على هذا الإعتبار، ف يقول القرآن عنهم:

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ

سورة الأنعام، الآية ١٠٠ .

وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ

سورة الصافات، ١٥٨ ـ ١٥٩ .

وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾

سورة الزخرف، ١٩ ـ ٢٠ .

ووقع فريق آخر من البشر في الشرك بسبب تعظيم بعض الأجرام السماو ية إلى حد التقديس، فعبدوا الشمس والقمر والنجوم، فيقول القرآن الكريم لبعضهم:

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ

سورة فصلت، الآية ٣٧ .

وقال لبعضهم الذين عبدوا نجم الشعرى لشدة لمعانه في السماء .

وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾

سورة النجم، ٤٣ ـ ٤٩ .

وهكذا دخلت هذه الفرق الضالة كلها في الشرك من باب تعظيم الأشخاص، أو أشياء هي من خلق الله، فقد سوهم وعبدوهم مع الله أو من دون الله، وضلوا بذلك عن الفطرة السوية التي تتجه لله وحده تعبده بغير شريك .

٢ ـ الميل إلى الإيمان بالمحسوس والغفلة عن غير المحسوس :

في الإنسان كما فطره الله نزعتان فطريتان متكاملتان. إحداهما تنزع إلى الإيمان بالمحسوس، أى ما يقع في دائرة الحس ويمكن للحواس أن تدرك وجوده بالنظر أو السمع أو الشم أو الذوق أو اللمس، والأخرى تنزع إلى الإيمان بالغيب، أى بما لا يقع في دائرة الحس ولا يمكن للحواس أن تدرك وجوده بطريق مباشر.

وإذا كان الإنسان يشترك في النزعة الأولى مع بعض المخلوقات الأخرى، فقد خصه الله بالنزعة الثانية ـ وهي الإيمان بالغيب ـ وكرّمه بها . وفضّله بها عن كثير ممن خلق . وكانت هذه الموهبة الربانية من عوامل رفعة الإنسان واتساع أفقه وعظمة روحه، وانفساح المجال أمامه وراء المحسوسات القريبة إلى آفاق التفكر والتدبر في الكون كله لينتفع به و يستدل به على عظمة خالقه ومبدعه .

ولكن فطرة الإنسان عرضة للمرض كما قلنا، إذا لم يداوم على رعايتها وتقديم الغذاء الصالح لها ، من ذكر لله وتقرب إليه بالأعمال الصالحات ، وعندئذ يرين على القلوب مما يرين عليها من ظلمات :

بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ سورة المطففين، الآية ١٤

ومن الأمراض التي تصيب فطرة الإنسان أن تغفل عن غير المحسوس وتحصر اهتمامها رويداً رويداً في دائرة المحسوس وحده، ثم تمتد بها الغفلة حتى تستغنى تماماً بعالم الحس عما وراءه، بل تمتد بها الغفلة أحياناً أكثر من ذلك فتنكر ما وراء الحس إنكاراً كاملا وتزعم أنه غير موجود ![1] .

وفي المراحل الأولى من هذه الغفلة لا ينكر المشرك وجود الله، ولكنه يتلمس صورة

---

(١) سنرى فيما بعد أن هذا المرض الأخير هو أوسع أبواب الالحاد الذي شمل جانباً كبيراً من البشرية في العصر الحاضر.

محسوسة قريبة يضفي عليها في خياله بعض خصائص الألوهية من نفع وضر، وعلم للغيب، وتصريف للأمر بالمشاركة مع الله! فمع أنه يعلم أن الله هو الخالق، وأنه لا يشاركه أحد في الخلق، إلا أنه يزعم أن فلاناً من الناس (نبياً كان أو ولياً من أولياء الله الصالحين) أو الملائكة، أو الجن، أو صنماً من الأصنام يستطيع أن يضر أو ينفع، أو يستجيب للدعاء، أو يبسط الرزق لمن يشاء، أو يعلم الغيب ويخبر به من يستطيع أن يتلقى عنه. وفي مثل هذه الصورة كان العرب في جاهليتهم. فقد سجل القرآن عليهم أنهم يعرفون أن الله موجود وأنه هو الخالق:

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ

سورة لقمان، الآية ٢٥ .

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾

سورة الزخرف، الآية ٨٧ .

ومع ذلك كانوا يشركون به الجن والملائكة والأصنام التي يعبدونها - في زعمهم - لتقربهم إلى الله زلفى ! .

ولكن الغفلة كما قلنا قد تمتد إلى أبعد من ذلك، فيغفل المشرك عن الله الذي:

لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَٰرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

سورة الأنعام، الآية ١٠٣ .

و يتصور أن الشيء المحسوس هو الله. فهنا لا يكتفي المشرك بأن يزعم لتلك المحسوسات بعض خصائصه الألوهية، بل يضفي كل خصائص الألوهية عليها. وفي مثل هذه الصورة كان المصريون في زمن الفراعنة إذ كانوا يزعمون أن «رع» - وهو قرص الشمس - هو الخالق وهو الرازق وهو المحي المميت، وهو الذي يبعث الناس يوم القيامة ويحاسبهم! كما كان المجوس ينسبون الخلق والضر والنفع والإحياء والإماتة للنار! وفي مثل هذا المستوى كذلك كانت الجاهلية الرومانية والجاهلية الإغريقية والجاهلية الهندية والجاهلية الصينية .

و بعض هذه الجاهليات كان يضيف إلى ذلك الشرك لوناً آخر، فيزعم أن فلاناً من

البشر هو ابن الله، و يضفى عليه بعض خصائص الألوهية أو كلها، كما كانت الجاهلية الفرعونية تزعم أن الفرعون هو ابن الله (ابن الإله رع) وأنه يجلس عن يمينه يوم القيامة، والجاهلية الهندية تزعم أن البراهما خلقوا من رأس الإله وأنهم من أجل ذلك مقدسون ولا يحاسبون على أعمالهم (بينما المنبوذون نجسون لأنهم مخلوقون من قدم الإله ولذلك فهم مهينون ومحتقرون !!) ولا تختلف النصرانية المحرفة كثيراً عن ذلك إذ زعمت أن المسيح ابن مريم هو ابن عبد الله. وقالت مرة إنه هو الله ومرة قالت إنه واحد من ثلاثة يكونون في مجموعهم إلهاً واحداً، وإلى ذلك يشير القرآن :

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ

سورة المائدة، ٧٢

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ

سورة المائدة، ٧٣

وقد وصل بنو إسرائيل إلى درجة أبشع من ذلك حين قالوا لموسى:

لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً

سورة البقرة، ٥٥

وحين مرّوا على قوم يعبدون الأصنام فقالوا لموسى إجعل لنا إلهاً (أى صنماً) نعبده مثل هؤلاء القوم:

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾

سورة الأعراف، ١٣٨

وحين عبدوا العجل واتخذوه إلهاً:

فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ

سورة طه، ٨٧ - ٨٨

كل هذا ونبيهم بين ظهرانيهم يعلمهم أمر دينهم(١) .

أما الدرجة القصوى من هذه الغفلة فهي التي تؤدي إلى إنكار وجود الله ألبتة، وسنتحدث عنها حين نتحدث عن الإلحاد .

٣ ـ الهوى والشهوات:

من الأمراض التي تصيب الفطرة كذلك وتوقعها في الشرك غلبة الهوى والشهوات ذلك أن دين الله المنزل يشمل دائماً أحكاماً إلهية يطلب الله من البشر أن يلتزموا بها و ينفذوها لتستقيم حياتهم وتتوازن :

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ

سورة الحديد، ٢٥

وحين تكون الفطرة مستقيمة فإنها تتقبل ما فرضه الله عليها بالرضا، وتجتهد في تنفيذه تعبداً لله وطمعاً في رضاه . ولكن حين يغلب عليها الهوى وحب الشهوات فإنها تضيق بما أنزل الله وتحب أن تتبع شهواتها . وفي ذلك يقول القرآن:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا

سورة لقمان، ٢١

فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ

سورة مريم، ٥٩

فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾

سورة القصص، ٥٠

---

(١) كان موسى عليه السلام قد تركهم أربعين ليلة ليتلقى من ربه الشريعة المنزلة ففعلوا هذا الفعل الشنيع ، مع أنه ترك أخاه هارون ليخلفه في قومه مدة غيابه عنهم .

أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ سورة الفرقان، ٤٣

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ
مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ
ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ
حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ سورة آل عمران، ١٤

ومن أجل هذه الشهوات يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة كما يصفهم القرآن:

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ
ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ سورة النحل، ١٠٧ - ١٠٨

ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا
عِوَجًا أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ سورة إبراهيم ٣

وهؤلاء يرفضون الهدى الرباني، و يرفضون أن يعترفوا بالوحي المنزل من عند الله ولو استيقنوا في دخيلة أنفسهم أنه الحق، لأنهم لو اعترفوا لكان عليهم أن يلتزموا، وهم يكرهون الالتزام بما أنزل الله، لأن شهواتهم تغلبهم وتثقل في حسهم. لذلك ينكرون أن ما جاء من عند الله هو الحق، ويجادلون فيه بالباطل. و يضعون قواعد وموازين للحياة وللأعمال غير ما

قرر الله، ثم يزعمون أنهم هم الذين على الحق، وأن ما يتبعونه من نظم وقواعد وموازين أحق أن يتبع مما أنزل الله، فيقعون بذلك في الشرك ـ شرك الاتباع(١) .

وعلى هذه الصورة، كانت الجاهلية العربية التي وصفها القرآن وصفاً مفصلا في كثير من الآيات في السور المكية خاصة . وعلى هذه الصورة كذلك نجد الجاهلية المعاصرة التي غرقت في الشهوات إلى أذنيها، ورفضت الاعتراف بالوحى الرباني لأنها تريد أن تتبع أهواءها ولا تريد أن تلتزم بما أنزل الله .

٤ ـ الكبر عن عبادة الله:

الكبر كذلك من الأمراض التي تصيب الفطرة فتنحرف بها عن صورتها السوية وتوقعها في الشرك .

والكبر درجات تبدأ بالاستكبار على الناس وتنتهي بالاستكبار على عبادة الله . وكلها خُلُق مقيت مرذول لا يصدر عن نفس سوية مستقيمة . لذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر »(٢) .

وغالباً ما يكون الكبر في نفوس من حصلوا على شيء من متاع الحياة الدنيا، من مال أو جاه أو سلطان . ولكنه ليس وقفاً عليهم، ويمكن أن يتسرب إلى أى نفس مريضة فيصاب صاحبها بما يسميه المعاصرون « جنون العظمة » ولو كان من أحقر الناس !

و يبين لنا الله في كتابه الحكيم أن الكبر من أسباب الكفر والشرك، كما جاء في قصة النمروذ:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

سورة البقرة، ٢٥٨

---

(١) سنتكلم في الصفحات التالية عن أنواع الشرك (٢) رواه مسلم .

وكما جاء في قصة فرعون: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١﴾

سورة الزخرف، ٥١

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥﴾

سورة النازعات، ١٧ - ٢٥

وكما كان من أمر الوليد بن المغيرة:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦﴾

سورة المدثر، ١١ - ٢٦

يبين لنا الله أنها قاعدة شاملة وليست ظاهرة فردية:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝٥٦﴾

سورة غافر، ٥٦

وهذا الكبر عن عبادة الله أوضح ما يكون في الجاهلية المعاصرة، فهو ليس وقفاً على أصحاب المال أو الجاه أو السلطان ، إنما سرى المرض في جسم الغرب حتى صار أتفه الناس شأناً يستكبر عن عبادة الله !

٥ ـ وجود الطغاة الذين يريدون أن يستعبدوا الناس لأنفسهم فيرفضون أن يحكموا بما أنزل الله:

من أهم أسباب الشرك في تاريخ الجاهليات كلها وجود طغاة من البشر يريدون أن يستعبدوا الناس لأنفسهم، و يسخروهم في قضاء شهواتهم، فيرفضون الانصياع لما أنزل الله، و يضعون من عند أنفسهم تشريعات لم يشرعها الله، فيحلون ويحرمون من عند أنفسهم، اتباعاً لأهوائهم، و يفرضون تشريعاتهم المزيفة على الناس بما يملكون في أيديهم من سلطان .

هؤلاء الطغاة في الواقع ينصبون أنفسهم أرباباً من دون الله حين يعطونها حق التشريع من دون الله . لأن الله وحده هو صاحب هذا الحق حيث أنه هو الخالق سبحانه وأنه هو العليم الخبير» .

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ سورة الأعراف، ٥٤

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ سورة البقرة، ٢١٦

فالله سبحانه وتعالى بحق ألوهيته وربوبيته لكل الخلق، و بعلمه التام بكل شيء هو الذي يحق له أن يقول: هذا حرام وهذا حلال، هذا حسن وهذا قبيح . هذا مباح وهذا غير مباح .

فإذا جاء أى إنسان فادعى لفنسه حق التحليل والتحريم، والمنع والإباحة فقد جعلها شريكاً لله، بل جعل نفسه إلهاً من دون الله . ومن تبعه في ذلك فقد أشركه في العبادة مع الله، أو أشرك به من دون الله !

وهؤلاء الطغاة، الذين يسميهم القرآن «الملأ» هم أول من يتصدى لتكذيب الرسل الذين يرسلهم الله لهداية البشرية:

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾
قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾

سورة الأعراف، ٥٩ - ٦٠

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا
لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾

سورة الأعراف، ٦٥ - ٦٦

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ
قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ
فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟
إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن
سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ
ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ
أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ
كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾

سورة الأعراف، ٧٣ - ٧٦

وهكذا دائماً يتصدى الملأ لتكذيب الرسول الآتي من عند الله، ثم لا يكتفون بالتكذيب بل يتبعونه بالتهديد .

وهذا الأمر الذي يبدو لنا غريباً لأول وهلة ليس غريباً في الحقيقة! .

فهؤلاء الملأ يعرفون جيداً أن السلطة التي يستعبدون بها الناس ليست شرعية في الحقيقة . لأنها مخالفة لما أنزل الله ، ولكنهم يتجاهلون ذلك ويمضون في غيّهم طاغين مستكبرين . فإذا جاء الرسول من عند الله يقول: « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » وهو ما قاله كل رسول لقومه ـــ فهو في الحقيقة ينادى برد السلطان المغتصب إلى الله ، صاحب الحق وحده في التشريع للناس ، وفي تقرير الحلال والحرام والمباح وغير المباح .

عندئذ يحس أولئك الملأ كما يحس السارق حين يرى رجل الشرطة قادماً نحوه! وإذا كان السارق في العادة يفر من رجل الشرطة إلا أن السارق المتبجح يقف يقطع الطريق! وهؤلاء الطغاة يقفون في وجه الرسل كما يقف السارق قاطع الطريق: يكذبونهم ثم يهددونهم بالسجن أو القتل أو التعذيب .

ثم إنهم لا يكتفون بتهديد الرسل أنفسهم، لكنهم يقفون بالمرصاد للناس الذين يستعبدونهم بسلطانهم . خوفاً من أن يفروا من سلطانهم الجائر إلى الله . فيهددونهم كما يهددون الرسل، و يطلبون منهم أن يستمروا في ولائهم لهم ويمنعونهم من تقديم الولاء الخالص لله! أى يأمرونهم بالشرك و يهددونهم بالقضاء عليهم إن أسلموا لله!

و وجود الطغاة من جانب يقابله وجود المستضعفين الذين يخضعون لهم من الجانب الآخر. الأولون يأمرون بالشرك والآخرون يطيعون، خوفاً أو ذلا وفناء في السادة المشركين .

والقرآن يقول عن الأولين:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾

سورة إبراهيم، ٢٨ ـ ٣٠

و يقول عن الآخرين:

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

سورة سبأ، ٣١ - ٣٣

أنواع الشرك

ليست الصورة الوحيدة للشرك هي السجود للأصنام كما يبدو لبعض الناس الذين يقرءون في التاريخ أن العرب في الجاهلية كانوا مشركين يعبدون الأصنام، فيتبادر إلى أذهانهم أن عبادة الأصنام هي السبب الوحيد في وصف العرب بأنهم كانوا مشركين، و يظنون من جهة أخرى أن الصورة الوحيدة للشرك هي عبادة الأصنام.

ولكنا إذا رجعنا إلى القرآن، ثم أمعنا النظر في حياة الجاهلية العربية ذاتها نجد أن عبادة الأصنام لم تكن إلا لوناً واحداً من ألوان الشرك في الجاهلية العربية، فضلا عن الجاهليات الأخرى التي مرت بها البشرية في تاريخها الطويل.

حقيقة أن عبادة الأصنام صورة واضحة ملموسة للشرك لا تحتاج إلى بيان.. ولكن الشرك في الحقيقة أوسع دائرة من عبادة الأصنام والسجود لها وتقديم القرابين إليها. وقد اتخذ في الجاهليات المختلفة صوراً شتى، وما يزال يتخذ إلى هذه اللحظة أشكالا متعددة في حياة الناس في الشرق والغرب، قد لا يلتفتون إليها ولا يدركون أنها ضروب من الشرك، حين يحصرون صورة الشرك في أذهانهم في عبادة الأصنام فحسب.

وفي الجاهلية العربية ذاتها كانت هناك ألوان متعددة من الشرك إلى جانب عبادة الأصنام، وعبادة الملائكة والجن، والظن بأنها تشفع لهم عند الله أو تقربهم إلى الله زلفى.

لقد كانت «القبيلة» رباً يعبد مع الله أو من دون الله!

انظر إلى قول الشاعر:

وهل أنا إلا من غزية، إن غزت غويت وإن ترشد غزية أرشد!

فما معنى قوله ذلك؟

معناه أنه لا يوجد عنده معيار للرشد أو الغي إلا ما تقوله قبيلته «غزية». بل معناه أسوأ من ذلك في الحقيقة. معناه أن القبيلة هي التي تحل له وتحرم.. فإن غوت فهو يغوى معها، مع علمه بأنها غاوية. لأن الغي يصبح في نظره حلالا ما دامت القبيلة قد فعلته. وإن رشدت فهو يرشد معها، لا لأنه يرى أن الرشد هو الأصلح، بل لأن القبيلة قد فعلته فهو

الحلال في هذه اللحظة ..

وفي كلتا الحالتين لا نجد أن الله موجود في حسّه! فهو لا يأخذ حلاله ولا حرامه من الله، ولا يتلقى منه الأمر ولا يرجع إليه في التصرف. إنما يأخذ من القبيلة، و يتلقى عنها، و يرجع إليها. وإذن فهي الرب الحقيقي بالنسبة إليه. وإن كان يعرف ـ نظرياً ـ أن الله موجود، وأنه هو الذي خلقه وخلق السموات والأرض!

وكذلك كان عرف الآباء والأجداد عند هؤلاء الجاهلين رباً يعبد من دون الله:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ سورة لقمان، ٢١

وليس العرب وحدهم هم الذين قالوا ذلك في جاهليتهم، فالقرآن يحدثنا أن هذا أيضاً كان شأن قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾

سورة إبراهيم، ٩ و ١٠

وعلى ذلك نستطيع أن نعدد ألواناً مختلفة من الشرك ـ سواء في الجاهلية العربية أو غيرها من الجاهليات ـ بجانب العبادة الخالصة للأصنام أو الأوثان بوصفها هي الله كاعتقاد الجاهلية الفرعونية أن رع «قرص الشمس» هو الإله، واعتقاد المجوس أن النار هي الإله، واعتقاد الأشوريين أن بعلا هو الإله، واعتقاد قوم نوح أن ودا وسواعا و يغوث و يعوق ونسرا هي الآلهة.

ضروب الشرك

من ضروب الشرك :ـ

١ ـ شرك التقرب والزلفى:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ سورة الزمر، ٣

وهذا النوع من الشرك ـ كما ذكرنا من قبل ـ يمارسه الشخص الذي يعرف أن الله موجود، وأنه هو الخالق الرازق المحيي المميت ولكنه مع ذلك يتصور خطأ أن هناك كائنات أخرى لها بعض خصائص الألوهية، وأنها من ثم قريبة من الله، وإذاً فالتقرب إليها يؤدي إلى القربى من الله! .

فمن تقرب من الصنم وتمسح به، ومن صلى له وسجد، ومن تقدم إليه بالقربان، يعلم أنه ليس هو الله، ولكنه يتصور أنه في مرتبة قريبة من الله . وأنه ـ لقربه من الله حساً ومعنى ـ يملك أن يقرب هذا العابد من الله! فهو إذاً وسيط يتوسط بين العبد و بين الله الذي كانوا يصفونه بأنه «رب الأرباب»! أى أن هناك أرباباً صغيرة، ورباً كبيراً هو الله . والأرباب الصغيرة تأخذ من العبد صلاته وتسبيحه وقربانه فتوصلها إلى الله، حيث إنها قريبة منه، فيتقبلها الله منها بما لها من حظوة عنده ومكانة! وعندئذ يرضى الله عن العبد و يثيبه على ما قدم للأرباب! ومع ذلك فإن الرضى والثواب لا يصل إلى العبد مباشرة، وإنما يصل عن طريق هذه الأرباب! فهي ـ أى كهنتها ـ هي التي تخبره بأن القربان قبل أو لم يقبل، و بأن الله راض عنه أو غاضب عليه!! .

ولقد نظن لأول وهلة أنه ما دام هذا المشرك يعرف ـ أو يعترف ـ بأن الله هو « رب الأرباب » فهو يلتزم بطاعته أكثر مما يطيع تلك الأرباب الصغيرة، وأنه يعظمه و يوقره أكثر مما يعظم تلك الأرباب و يوقرها .

ولكن الواقع ـ الذي يصفه لنا القرآن وصفاً دقيقاً ـ كان شيئاً آخر غير الذي نظن .. فالحقيقة أنهم يطيعون تلك الأرباب و يوقرونها ويحتفون بها أكثر مما يصنعون ذلك مع «رب الأرباب» .

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ سورة الأنعام، ١٣٦ .

فهم زعموا بادىء ذى بدء أن لله نصيباً من الحرث والأنعام، وللشركاء (الأصنام) نصيباً. وحرموا أكله لأنه نصيب الله أو نصيب الشركاء !

وإلى هنا فقد ارتكبوا إثمين عظيمين كلاهما شرك . الأول أنهم حرّموا بغير إذن الله، والله وحده هو الذي يحل ويحرم لأنه المالك وصاحب الأمر[1]

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾ سورة الأعراف ٥٤

والإثم الثاني أنهم جعلوا للشركاء نصيباً كما جعلوا لله نصيباً . فأشركوهم مع الله في حقوق الألوهية كما يتصورونها!

ولكنهم مع ذلك لم يحافظوا على ما زعموه من تخصيص جزء من الحرث والأنعام لله، إلى جانب ما خصصوا للشركاء . فإن ما خصصوه لله عادوا فمنحوه لشركائهم . أما ما خصصوه للشركاء فإنهم لا يعطونه لله !!

فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ
وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ

وهذا التصرف العجيب الذي يقول عنه القرآن: «ساء ما يحكمون» كانوا يبررونه بأن الله غني غير محتاج، أما الشركاء فمحتاجون!

---

(١) يقول الله لهم في سورة يونس (آية ٥٩): قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا . قل الله أذن لكم ، أم على الله تفترون .

وهو تبرير سخيف في منطق العقل. فما دام الله غنياً فلماذا خصصوا له ذلك النصيب دون أن يطلب الله منهم ذلك؟! وما دام الشركاء محتاجين إلى ما عند الله فبأي اعتبار صاروا آلهة؟ وإذا كانوا لا يملكون لأنفسهم الاكتفاء فكيف يملكون أن يعطوا عبادهم ؟!

ولكن هذا التبرير - فوق سخفه - ينم عن حقيقة نفسية كامنة، هي أن التوقير الحقيقي في نفوسهم لم يكن لله الحق، وإنما كان لتلك الأصنام التي يشركونها مع الله !

ولقد يبدو لنا اليوم أن هذا اللون من الشرك ساذج جداً وسخيف جداً بحيث يستنكف منه الإنسان المعاصر، الذي تيسرت له وسائل التعليم والثقافة، واتسعت حصيلته العلمية والفكرية.

ومع ذلك فانظر إلى ملايين الناس التي تطوف حول أضرحة المشايخ والأولياء والقديسين في أرض الإسلام وخارج أرض الإسلام، تطلب منهم أن يقربوهم إلى الله زلفى.

وانظر إلى الذين يخشون - في دخيلة أنفسهم - غضبة الذين يعظمونهم من ولاة وشيوخ وعظماء، ولا يخشون غضبة الله، والذين يعتقدون فيمن يعظمونهم أنهم أقرب ضراً لهم ونفعاً من الله سواء كانوا ملوكاً وعلماء ورؤساء !.

أتراهم قد بعدوا في هذا الأمر عن عُبّاد الجاهلية الذين روى القرآن الكريم عنهم:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾

سورة الزمر، الآية ٣.

٢ - شرك طلب الشفاعة من غير الله:

وقريب من شرك التقرب والزلفى شرك طلب الشفاعة من غير الله، لأنه امتداد له في الحقيقة.

وقد كان العرب في الجاهلية يمارسون الشركين معاً. فقد كانوا يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى، وكانوا في الوقت ذاته يطلبون الشفاعة منهم لتوهمهم أنهم أصحاب كلمة

مسموعة عند الله لقربهم منه ـ سبحانه ـ وأن الله يجيب طلباتهم ولا يردها لأنها آتية من أحبابه المقربين؟ فإذا تقدموا بالشفاعة لعبد من العباد قبل الله شفاعتهم له ورضى عنه .

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾

سورة يونس، الآية ١٨

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

سورة الزمر، الآيتان ٤٣، ٤٤ .

وكما عبدوا الأصنام لتشفع لهم عند الله ـ و بخاصة اللات والعزى ومناة ـ فإنهم عبدوا الملائكة كذلك باعتبارها بنات الله حسب ادعائهم الباطل، وأنها لذلك مسموعة الكلمة عند الله :

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ سورة الأنبياء، الآيتان ٢٦ ـ ٢٨ .

ولقد يخيل إلينا كذلك أن هذه القضية قد انتهت مع انتهاء الجاهلية العربية، ولم يعد لها وجود . ولكن المتأمل في حياة الناس اليوم يجد نظائر لها في تشفيع الموتى من الأولياء والصالحين عند الله في قضاء المصالح وفي الرضا عن العباد .

وقضية الشفاعة كقضية الزلفى، كلتاهما تنشأ من توهم أن هناك من يملك من الأمر شيئاً مع الله، أو يملك التأثير في مشيئة الله وإرادته .. وهو وَهْم يأتي من قياس باطل. فهم يقيسون شأن الله سبحانه على شأن المخلوقين من عباده، إذ يرون في عالم البشر أن الشخص المقرب من أصحاب السلطان تكون له عندهم كلمة مسموعة، وأنه يتشفع للناس بحكم هذه المودة فتقبل شفاعته وتستجاب، فيتخيلون ـ في غفلتهم ـ أن هذا يحدث مع الله سبحانه وتعالى! وأن طائفة من خلق الله ـ كالملائكة مثلا ـ لا بد أن تكون لهم كلمة مسموعة عنده، لأنهم مقربون منه ومكرمون، وأن شفاعتهم للعباد تستجاب عنده بسبب ذلك وتقضى حوائجهم. وهم ينسون الفارق بين شأن الله سبحانه وتعالى وشأن المخلوقات، فالله هو الغني، وهو المدبر المهيمن على كل ما في الوجود، ومشيئته هي النافذة وحدها في هذا الكون، فما الذي يحوجه سبحانه وتعالى أن يستجيب لشيء أو لشخص لا يريد أن يستجيب له؟ أو بعبارة أخرى ما الذي يحوجه سبحانه وتعالى أن يشرك معه أحداً في تدبير أى أمر من أمور الكون؟ فالخلق جميعاً عبيد له وأقربهم إليه أتقاهم له.

ولا ينفي هذا أن تكون هناك شفاعة بين يدى الله يوم القيامة يتقبلها سبحانه وتعالى و يستجيب لها(١). ولكنها أولا بإذن منه سبحانه، ثم هي لا تكون إلا في حق من رضى الله أن يشفع فيهم الشافعون.

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ سورة النبأ، الآية ٣٨.

وقال تعالى:

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ سورة الأنبياء، الآية ٢٨.

وقال:

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ سورة النجم، الآية ٢٦.

---

(١) كشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في أهل الموقف يوم القيامة وشفاعته بأن يدخل الجنة قوم من أمته وكل هذا بعد رضى الله وإذنه.

٣ ـ شرك الطاعة والاتباع:

الأصل في العبادة هو الطاعة. ومعنى عبادة الله طاعته فيما أمر به وما نهى عنه. فإن الإحساس الحقيقي بعظمة الله وألوهيته، وأنه هو الخالق لهذا الكون، والمدبر لكل شئونه، والمهيمن على كل شيء فيه، والإحساس في ذات الوقت بمقام الإنسان الحقيقي أمام الله، وهو مقام العبودية الكاملة لخالق السماوات والأرض، ومالك الأمر كله.. هذا الإحساس يؤدي إلى نتيجة لازمة هي الطاعة لهذا الإله المتفرد بالألوهية والعبودية والربوبية دون شريك.

ولقد يغفل الإنسان عن ذكر الله لحظة فيوسوس له الشيطان بمعصية الله كما وسوس لآدم عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ سورة طه، الآية ١١٥، ١٢٠، ١٢١.

ولكن الله من رحمته يتوب على العبد من لحظة الغفلة العارضة ما دام لا يصر عليها، ولا يمعن في الغواية، كما تاب على آدم عليه السلام حين استغفر ربه وأناب.

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾
سورة طه، الآيتان ١٢١، ١٢٢.

كما يتوب على كل عباده حين يرجعون إليه:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟

لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ سورة آل عمران، الآيتان ١٣٥، ١٣٦ .

أما الذي يصر على الغواية، و يرفض الانصياع لأمر الله، و يتوجه بالطاعة لغير الله يأخذ منه ما يَحْرُم وما يحل، وما يباح وما لا يباح، فلا يمكن أن يكون في دخيلة نفسه مقراً لله بالربوبية والألوهية بغير شريك ـ ولو ادعى ذلك ! إنما هو في الحقيقة قد وضع غير الله في مقام الربوبية والألوهية واتجه إليه بالعبادة، أى بالطاعة التي كان ينبغي أن تكون لله وحده دون سواه .

يقول القرآن الكريم عن اليهود والنصارى:

اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ سورة التوبة، الآية ٣١ .

ويحدد الرسول صلى الله عليه وسلم معنى العبادة، ومعنى اتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله تحديداً واضحاً حاسماً في قصة عدى بن حاتم حين جاء ليسلم على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان نصرانياً من قبل: روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير ـ من طرق ـ عن عدى بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فر إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه . ثم منَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على أخته وأعطاها، فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام، وفي القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقدم عدى المدينة ـ وكان رئيساً في قومه طيى، وأبو حاتم الطائي المشهور بالكرم ـ فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنق عدى صليب من فضة، وهو (أى الرسول صلى الله عليه وسلم) يقرأ هذه الآية: « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » فقلت : إنهم لا يعبدوهم . فقال :

«بلى . إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم . فذلك عبادتهم إياهم» .

فعدى بن حاتم كان يتوهم أن العبادة هي الركوع والسجود فحسب، لذلك قال إنهم لم يعبدوهم! ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم بيَّن له حقيقة الأمر كما علمه الله . بيّن له أن طاعة الأحبار والرهبان في التحليل والتحريم بغير ما أنزل الله هي عبادة لهم، ومن ثم فهي إشراك بالله . لأن الطاعة في هذه الأمور إنما تكون لله وحده حيث أنه هو الرب المعبود بحق . فالتوجه بها لغير الله عبادة لمن تُوَجَّهُ إليه، وإن لم يكن معها ركوع ولا سجود ولا تقديم قرابين!! بل هي عبادة لغير الله وإشراك به حتى ولو ظل الركوع والسجود يقدم لله وحده ولا يقدم لغيره! فالركوع والسجود لله، والتلقى من عند الله في التحريم والتحليل كلاهما سواء، ومجموعهما معاً هو العبادة . ولم يقل الله لعباده إذا ركعتم لى وسجدتم فقد تمت عبادتكم لى، ولم يعد عليكم بأس في أن تطيعوا غيرى في التحليل والتحريم .. إنما أمر الله عباده أن يسجدوا له و يركعوا، وأن يتبعوا ما أنزل إليهم من حلال وحرام، وأخبرهم بأن إسلامهم لا يتم بغير الأمرين معاً في ذات الوقت، وأنهم إن توجهوا بهذا الأمر أو ذاك لغير الله فقد أشركوا:

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ سورة فصلت، الآية ٣٧ .

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾
سورة الأعراف، الآية ٣ .

فالسجود لغير الله في الآية الأولى ينفى العبادة لله وعدم اتباع ما أنزل الله في الآية الثانية مرادف لاتباع الأولياء ـ أى الشركاء ـ من دون الله .

وكذلك يحكى القرآن قول الكفار تبريراً لشركهم:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ سورة النحل، الآية ٣٥ .

فهم يحددون الشرك الذي هم واقعون فيه بأمرين في ذات الوقت: العبادة بمعناها الظاهر أى الركوع والسجود وكذلك التحريم والتحليل بغير ما أنزل الله، وهم هنا في الآية يحاولون تبرير هذا الشرك بشقيه بأنه راجع إلى مشيئة الله، والله يكذبهم في ذلك و يقيم الحجة عليهم بأنه أرسل إليهم الرسل ليبلغوهم بحقيقة الإسلام:

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ

سورة النحل، الآيتان ٣٥ ـ ٣٦ .

وهذا اللون من الشرك هو الذي يعم وجه الأرض اليوم .

فأما الأرض غير الإسلامية فقد حوت كل صنوف الكفر والشرك، ومن أبرزها شرك الطاعة في التحليل والتحريم بغير ما أنزل الله، واتخاذ الأرباب المختلفة من دون الله .

وأما الأرض الإسلامية فقد وقع من أهلها في هذا النوع من الشرك كل من رضى بشريعة غير شريعة الله، مجلوبة من الشرق أو الغرب، وكل من رفع راية للتجمع أو للجهاد غير راية الإسلام، من قومية أو وطنية أو علمانية أو غيرها من الرايات التي لم يأذن بها الله .

وهؤلاء وهؤلاء يقيمون أرباباً ـ وإن كانت غير محسوسة ـ و يعبدونها من دون الله .

فالذي ينادى بالقومية أو الوطنية و يتخذ ذلك ذريعة لإقامة وطن لا تحكم فيه شريعة الله، هو في الواقع يتخذ القومية أو الوطنية رباً يعبده من دون الله، سواء في ذلك من يقيم هذه الراية ومن يرضى بها، لأن الأول يصدر باسمها تشريعات تحل وتحرم بغير ما أنزل الله، والآخر يتلقى منها و يطيعها ولا يتوجه بالتلقى والطاعة إلى الله .

والذي ينادي بوجوب إفطار العمال في رمضان لأن الصيام يضر بالإنتاج المادي، يتخذ الإنتاج المادي في الحقيقة رباً يعبده من دون الله، لأنه يطيعه مخالفاً أمر الله .

والذي ينادي بخروج المرأة سافرة متبرجة مخالطة للرجال باسم التقدم والرقى و باسم التحرر، يتخذ التقدم والرقى والتحرر في الحقيقة أر باباً معبودة من دون الله، لأنه يحل باسمها ما حرّم الله، و يطيعها من دون الله .

والذي يدعو إلى إبطال شريعة الله أو تبديل التقاليد الإسلامية التي تصون الأخلاق والأعراض لكي نبدو في نظر الغرب متحضرين غير متخلفين، يتخذ الغرب وتقاليده أر باباً معبودة من دون الله، ولو صلى وصام وزعم أنه مسلم، لأن الغرب وتقاليده أثقل في حسه من أوامر الله، وأولى بالاتباع والطاعة من أوامر الله ! .

وهكذا نجد صوراً متعددة من شرك الطاعة والاتباع تعم حياة الناس اليوم دون أن يتبينوا ما هم واقعون فيه من الشرك، مع أن كتاب الله وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم واضحة حاسمة في هذا الأمر: أن العبادة هي التلقى من الله في كل شأن من شئون الحياة. وكما نتلقى من الله شعائر التعبد، فنعبده سبحانه وتعالى بما تعبدنا به من صلاة وصيام وزكاة وحج، كذلك نتلقى منه أمور حلالنا وحرامنا، أى الشريعة التي تحكم أمور حياتنا في الصغيرة وفي الكبيرة سواء، لأن الله تعبدنا بتنفيذ شريعته كما تعبدنا بالصلاة والصوم والزكاة والحج، وكلها سواء، واعتبر التوجيه في هذه أو تلك لغير الله شركاً، وقال عن الذين يفعلون ذلك:

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ

سورة الشورى، الآية ٢١ .

وقد أمرنا الله بمفاصلة الواقعين في هذا الشرك:

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ

سورة آل عمران، الآية ٦٤ .

لذلك ينبغي علينا أن نتبين طريقنا جيداً في وسط هذا الشرك الذي يعم اليوم وجه

الأ رض، وأن نجتهد ونتحرى ألا نعبد إلا الله تعالى ولا نشرك به شيئاً، وألا نتخذ أر باباً ـ محسوسة أو غير محسوسة ـ نتوجه لها بالعبادة من دون الله .

٤ ـ شرك المحبة والولاء:

وقريب من شرك الطاعة والاتباع شرك المحبة والولاء للمشركين والكفار. إن ولاء المسلم ينبغي أن يكون لله ولرسوله وللمؤمنين كما أمرنا القرآن: إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۝ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ سورة المائدة، الآيات ٥٥ ـ ٥٧ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ
سورة المائدة، الآية ٥١ .

وكذلك المحبة لا ينبغي أن تكون لغير الله ورسوله والمؤمنين. ولا ينبغي بحال من الأحوال أن تكون لشيء ولا لأحد يقع في دائرة الكفر والشرك:

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ سورة البقرة، الآية ١٦٥ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝٢٣ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٢٤ ﴾ . سورة التوبة، الآيتان ٢٣، ٢٤ .

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾

سورة المجادلة، الآية ٢٢ .

إن العبادة ليست هي الشعائر التعبدية وحدها من صلاة وصيام وزكاة وحج كما يظن كثير من الناس في العصر الحاضر. ولا يكون الإنسان مسلماً موحداً بمجرد أن ينطق بشهادة التوحيد : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ثم يؤدي الشعائر التعبدية . وإنما ينبغي مع ذلك أن يعمل بمقتضى شهادة التوحيد ليكون موحداً حقاً والتوجه بالولاء والمحبة للكفار والمشركين هو نقص لشهادة أن لا إله إلا الله ولو ظل الإنسان ينطقها بلسانه و يؤدي معها شعائر التعبد ! لذلك يصف القرآن ولاء اليهود والنصارى والكافرين بأنه ردة فيقول في سورة المائدة في سياق متصل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَۚ

سورة المائدة: ٥١ ـ ٥٧ .

إن التوحيد أمر هائل جداً، وليس مجرد كلمة تنطق ! إنه أمر شامل يشمل كل عمل الإنسان وكل فكره، و يشمل حتى مشاعره الداخلية التي قد يخفيها داخل نفسه ولا يبينها للناس .

ولا يتم التوحيد في حقيقة الواقع حتى تكون كل أعمال الإنسان وكل أفكاره وكل مشاعره مستقيمة على نهج واحد، متوجهة كلها إلى الله، مستمدة كلها من منهج الله .

وقد قلنا من قبل إن الله من رحمته يغفر السقطة العابرة التي يقع فيها الإنسان و يستغفر عنها ربه ولا يصر عليها . أما إقامة منهج الحياة وسلوك الإنسان وفكره وشعوره على أسس مخالفة لأمر الله ، فهو شرك لا يغفره الله لأنه نقض واقعي لشهادة التوحيد ولو ظلت تنطق بالأفواه ! .

٥ ـ شرك الرياء:

والمقصود بشرك الرياء هو التوجه بالعمل لغير الله . فقد يكون العمل في ذاته سليماً في صورته، كالصلاة مثلا، ركعاتها مضبوطة، وقيامها وقعودها على الصورة التي بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن صاحبها لا يصليها لكي يؤدي الفريصة لله، و يتقرب بها إليه، إنما يصليها ليمدحه الناس و يقولوا عنه إنه من الصالحين .. فهنا لا يكون العيب في صورة العمل ، إنما في التوجه به لغير الله ، أي في المشاعر المصاحبة له . فهذا المصلى لا يصلى إلى

صنم مثلا ، ولا يؤمن بأن هناك إلها غير الله يتعبد إليه الإنسان بالركوع والسجود بين يديه . ومع ذلك فإن القصد الحقيقي من عمله لم يكن إرضاء الله سبحانه وتعالى ، وإنما إرضاء الناس ونيل مديحهم . ومن هنا وقع في الشرك الأصغر .

وكذلك إذا أنفق ماله رئاء الناس ، أو قام بأى عمل من الأعمال بغية امتداح الناس له وثنائهم عليه .

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله: الرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه من قومه، فأى ذلك في سبيل الله؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» . رواه مسلم .

و يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: قال الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه» رواه الشيخان .

و يقول صلى الله عليه وسلم: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله. قال: الرياء» رواه أحمد والطبراني والبيهقى . عن ابن أبى حاتم عن ابن عباس» .

ومن هنا ينبغي أن نتنبه لأنفسنا لكي لا نقع في هذا اللون من الشرك . فإنه «أخفى من دبيب النمل» كما حدث الرسول صلى الله عليه وسلم وإن كان الله من رحمته يغفر الشرك الخفى، وهو الرياء الذي يَخْفَى على صاحبه ولا يأتيه بقصد منه، فإنه لا يغفر الرياء الذي يأتيه الإنسان بوعى منه وإرادة، يريد به استجلاب مديح الناس ولا يبتغي به مرضاة الله .

تلك كلها ألوان من الشرك يقع فيها البشر حين ينحرفون عن طريق الفطرة السوية كما فطرها الله، وهي كلها مجافية لحقيقة التوحيد وناقضة لها من أساسها .

ذلك أن حقيقة التوحيد التي تقرّ بها السماوات والأرض، و يقرّ بها الإنسان المؤمن ليست شيئاً مظهرياً ولا أمراً جزئياً . إنما هي الحقيقة الجوهرية في هذا الكون كله، وهي الركيزة الكبرى للإنسان المؤمن، منها تنطلق تصوراته وأفكاره، ومشاعره وسلوكه، وكل شيء في حياته .

ولا يتأتى أن يكون الإنسان موحداً في جانب من جوانب حياته، ثم يتوجه في جوانب حياته الأخرى لغير الله، فإنه بذلك يكون قد اتخذ إلهين، والقرآن يقول:

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ سورة النحل، ٥١ .

وهذه الرهبة التي يتحدث عنها كتاب الله هي الحصيلة الحقيقية للإحساس بحقيقة التوحيد بأقسامه الثلاثة: توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات، وتنزيه الرب الإله عن كل شريك وتنزيه صفاته عن التشبيه والتأويل ومؤداها هو التوجه لله وحده بالعمل كله، سواء كان العمل صلاة ونسكاً، أو سعياً في الأرض وراء الرزق، أو كسباً أو إنفاقاً، أو علماً أو اقتصاداً أو اجتماعاً أو سلماً أو حرباً أو اعتقاداً ..الخ .

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ﴾
سورة الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣ .

وأياً كانت أنواع الشرك، وأياً كانت أسبابه ودوافعه فهو أمر باطل في حكم الله كما أنه قبيح مستنكر في حكم العقل. فأيما إنسان سليم العقل مستقيم التفكير لا يمكن أن يتقبل الشرك بالله في أية صورة من صوره. ولذلك يندد القرآن بالمشركين في كثير من المواضع بقوله تعالى: «أفلا تعقلون؟!» لأن مقتضى العقل أن يتوصل الإنسان إلى حقيقة التوحيد، و يصل فيها إلى درجة اليقين. فهذا هو الكون مفتوحاً أمام الحس البشرى، هل فيه شيء واحد ينبيء بأن يداً غير يد الله قد تدخلت في خلقه أو في تدبيره؟ وهل يمكن أن ينتظم سير الكون هذا الانتظام الدقيق لو كانت فيه إرادتان مختلفتان أو صنعتان مختلفتان؟! .

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ۖ

﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ سورة الملك: ١ - ٤ .

إن النظر في أي شيء من خلق الله، كبير أو صغير، لينتهي بالعقل إلى نتيجة واحدة، هي التوحيد .

والقرآن يشير إلى تلك الحقيقة في مواضع شتى، و يضرب للناس الأمثال :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۝﴾ سورة الحج، ٧٣

فالذباب في نظر الناس من أهون الأشياء وأحقرها .. ومع ذلك، فهل يستطيع أحد ـ غير الله ـ أن يخلق ذبابة واحدة ولو اجتمع كل أهل السماوات والأرض ؟!

بل إن الأمر أبعد من ذلك في العجز «وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه» فهم لا يعجزون فقط عن خلق الذباب بل يعجزون عن استرداد شيء سلبه الذباب منهم . إن الذباب يقف على الطعام فيقضم منه قضمة لا تكاد ترى، أو يعلق بأرجله وأجنحته مثل ذلك .. فهل يستطيع أحد أن يسترد منه ما سلب من الطعام؟! .

ألا ما أعجز الناس .. والشركاء المزعومين! وما أحوجنا إلى توحيد رب العالمين .

بل إن الكائنات الحية ـ وإن ضعفت كالذباب ـ ليست وحدها التي يكمن فيها التحدي، و يكمن الإعجاز .

فخذ المادة الميتة التي تبدو لنا أهون في خلقها من الكائنات الحية .

خذ قطعة صغيرة من حديد أو نحاس أو أى مادة تشاء .

فهل يخطر على بالك كم من ملايين الملايين من الذرات تحويها تلك القطعة الصغيرة؟

وهل يخطر على بالك كيف تتكون كل ذرة واحدة من هذه الذرات؟ هل يخطر على بالك أن كل واحدة منها مفردة لا تستطيع العين رؤيتها ولا بالمجهر، تتكون من شمس تدور

حولها كو يكبات في نظام دقيق متسق لا يختل ؟!

وهل يخطر على بالك مقدار «الطاقة» التي تحو يها تلك الذرة المفردة؟ و بأى قوة هائلة تتماسك الكو يكبات حول شمسها التي هي نواة الذرة؟

وهل يخطر على بالك أخيراً أن هذه الطاقة هي التي تحدث ـ حين تنفجر ـ تلك الآثار المروعة التي أحدثتها القنبلة الذرية؟ والتي لا تقاس بشيء إلى القنبلة النوو ية؟!

إن العقل السليم لا يمكن أن ينتهي من تفكيره إلا إلى نتيجة واحدة، هي التوحيد. والشرك ـ على ذلك ـ قبيح مستنكر في حكم العقل، فضلا عن بطلانه في حكم الله.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (٤٣)﴾

سورة العنكبوت: ٤١ ـ ٤٣.

وإذا كانت حقيقة الكون كله قائمة على توحيد الألوهية والر بوبية، بالاستجابة لأمر الله، والعمل بمقتضى هذا الأمر كما قال الله عن السماوات والأ رض:

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ سورة فصلت، ١١

إذا كانت هذه هي حقيقة الكون فأى ظلم يوقع فيه الإنسان نفسه حين ينحرف عن هذه الحقيقة الهائلة التي تقوم عليها السماوات والأ رض ؟

أى ظلم في إنكار الحق الذي يستجيب له الكون كله و يقرّ به، وأى ظلم أن يورد الإنسان نفسه موارد الهلاك بهذا الإنكار؟!

لذلك يصف القرآن الشرك بأنه ظلم، و يصف المشركين بأنهم الظالمون:

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾

سورة لقمان: ١٣ .

وقال تعالى:

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ سورة يونس: ١٠٦

و يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إن من أكبر الكبائر الشرك بالله» رواه البخاري .

آثار الشرك

إذا كان التوحيد كما رأينا هو ما فطر الله عليه الإنسان السوى، وهو الذي يستقيم به الكون وحياة الإنسان .

فإن الشرك الذي يقع فيه الإنسان له آثاره الو بيلة في حياته وآخرته سواء كان الواقع فيه فرداً أو جماعة .

واعلم أن الشرك عدة أنواع وأنه لا يخرج عن ثلا ثة أقسام هي :

١ ـ الشرك الأكبر. ٢ ـ الشرك الأصغر. ٣ ـ الشرك الخفي .

فالشرك الأكبر ينفى الإسلام بالكلية والشرك الأصغر أكبر من كبائر الذنوب. والشرك الخفي يبطل العمل الذي صاحبه فقط .

١ ـ وأول آثار الشرك إطفاء نور الفطرة:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من مولود إلا و يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه ويمجسانه» .

إن الله سبحانه وتعالى حين خلق آدم استخرج ذريته من صلبه أمثال الذر فأخذ عليهم العهدَ والميثاق أن لا يشركوا به شيئاً .

وعلى هذا فإن الشرك انحراف عن المهمة التي خلق الجن والإنس من أجلها .

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ الذاريات: ٥٦ .

إن الشرك يبعد بالإنسان عن حقيقة التوحيد التي يستمد منها الإنسان إشراقته ونوره وسداد أمره وتصبح أعمال المشرك كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء . وتصبح حاله وأعماله معتمة مظلمة .

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾

سورة النور: ٣٩ - ٤٠

٢ ـ ومن آثاره القضاء على منازع النفس السامية:

فالنفس المتعلقة بالله المتطلعة إلى رضاه لا تستغرقها شهوات الحس ولا تنصرف بكليتها إلى متاع الأرض القريب، إنما تتطلع دائماً إلى الأفق الأعلى . إلى المثل العليا والقيم الرفيعة. إلى المعاني الجميلة التي يتحقق بها وجود «الإنسان» وميله الفطري إلى النظافة الخلقية والروحية. إلى الترفع عن الدنس في كل صوره وأشكاله، سواء كان فاحشة من الفواحش التي حرمها الله، أو ظلماً يقع الناس، أو موقفاً خسيساً يقفه الإنسان من أجل شهوة رخيصة أو مطلب من مطالب الحياة الدنيا .

ولكن حين تهتز حقيقة التوحيد في النفس و يغشيها الشرك، فإن النفس تنحط عن أفقها الأعلى وتهبط إلى مستو ياتها الدنيا، فتشغلها الأرض. يشغلها المتاع الزائل فتتكالب عليه وتنسى القيم العليا والجهاد من أجل إقامتها وتحقيقها . و يكون جهادها صراعاً خسيساً

على هذا المتاع الزائل يتقاتل من أجله الأفراد والدول والشعوب. وتصبح الحياة البشرية محكومة بقانون الغاب، القوى يأكل الضعيف، والغلبة للقوة لا لصاحب الحق.. وهو الأمر الذي نراه سائداً في الجاهلية المعاصرة في كل منحى من مناحى الحياة:

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝٣١﴾ (سورة الحج: ٣١)

٣ ـ ومن آثاره القضاء على عزة النفس ووقوع صاحبه في العبودية الذليلة:

إن العزة الحقيقية هي التي تستمد من الإيمان بالله الواحد:

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ سورة المنافقون: ٨

فالمؤمن على يقين من تلك الكلمة التي يرددها في كل صلاة: الله أكبر..

أكبر من كل شيء في هذا الوجود ومن كل أحد. ومن ثم يحس المؤمن الذي تعلق قلبه بالله أنه عزيز بتلك القوة المستمدة من العبودية الحقة لله الحق. فهو الإله الخالق الرازق الضار النافع المحيى المميت، المالك للأمر كله بلا شريك. ومن ثم لا يعود يخشى الأشياء ولا الأشخاص ولا الأحداث، لأنه يعلم أن الله هو المدبر الحقيقي لكل ما في الكون، وأن أحداً في الكون كله لا يملك شيئاً مع الله. فعلام إذاً يذل لغير الله؟ علام يبذل من كرامته وعزته لبشر مثله، عاجز ولو كانت في يده مظاهر القوة، ضعيف وإن كان جباراً في الأرض بغير الحق، محتاج مثله لما عند الله لأن الله وحده هو الحي القيوم وكل ما عداه صائر إلى زوال؟!

كلا .. لا يبذل المؤمن من عزته وكرامته لأحد غير الله.

ولكن المشرك لا يعرف هذه العزة ولا يتذوقها.

إنه عبد .. ولكنها عبودية ذليلة لأنها ليست العبودية لله، الكريم الرحيم، الذي يعز عباده بعزته!

إنه عبد .. لبشر مثله يتحكم فيه فيذله، عبد لشهواته: شهوة المال أو شهوة الجنس أو شهوة السلطان .. كلها عبودية ذليلة وإن بدت لأول وهلة متاعاً وتمكناً وتجبراً في الأرض.

ثم يذهب هذا المتاع الزائل الذي تذل له أعناق الرجال، و يأتي اليوم الذي يقفون فيه موقف الخزى الأكبر أمام العزيز الجبار:

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ۝ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ۝﴾ سورة الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧

٤ ـ ومن آثاره تمزيق وحدة النفس البشرية:

فالله سبحانه وتعالى فطر هذه النفس بحكمته، وأنزل الكتاب الذي تعمل بمقتضاه هذه النفس فتكون على فطرتها السوية كما خلقها الله، ذلك أن الله أمر جميع رسله صلوات الله وسلامه عليهم بالتوحيد ليبلغوه الناس:

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ سورة هود: ٥٠

وهي الكلمة التي قالها نوح وهود وصالح وشعيب وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم والأنبياء جميعاً.

و يعلم الله سبحانه وتعالى أنه حين يعمل الإنسان بمقتضى كلمة التوحيد هذه فإن نفسه تكون «في أحسن تقويم» وتكون على استوائها، لأنها تتجه كلها وجهة واحدة في جميع تصرفاتها. فالإنسان ـ المؤمن ـ يتجه بصلاته ونسكه إلى الله، و يضرب في الأرض يبتغى الرزق فيتوجه إلى الله يطلب منه التوفيق والعون، و يتوجه إليه بالعمل ذاته فيبتغى فيه الحلال الذي أحله الله و يتجنب الحرام الذي حرّمه الله، فيكون في كل لحظة ذاكراً الله لأنه يتحرى حلاله وحرامه في كل تصرف وفي كل موقف. كلما همّ بحركة أو عمل أو هجس في نفسه هاجس سأل نفسه أولا: أحلال هو فيأتيه، أم حرام فعليه أن يتجنبه؟

وكذلك هو إن ذهب يتعلم، أو ابتغى أن يتزوج، أو باع أو اشترى، أو تعامل مع الناس في أمر من أمور حياته: يتوجه إلى الله أولا و يستلهم كتابه المنزل الذي يحوى تفاصيل ما أحل الله وما حرم، وما أباح وما منع»[1] فإذا هو في كل نشاط حياته متجه إلى ذات الإله الذي

---

(١) وكذلك السنة النبوية المطهرة تحوى تفاصيل شرع الله وهي من عند الله لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يشرعها بوحى الله وأمره «وما ينطق عن الهوى».

يصلى له و يصوم، و يؤدى له من شعائر التعبد ما يتقرب به إليه، وإذا المتجه إليه واحد في جميع الحالات:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾

سورة الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣

عند ذلك تطمئن النفس وتستقر:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۝٢٨﴾

سورة الرعد: ٢٨

وتكون قوة هائلة في ذات الوقت، كحزمة الضوء التي تتجمع فتضيء أو تتجمع فتكون شعلة متقدة ..

قوة هائلة تنطلق في الأرض تبنى وتعمر في كل اتجاه، راضية مطمئنة، نشيطة وثابتة في ذات الوقت، كما كان ذلك الجيل الفذ الذي بدأ به تاريخ الإسلام: ينشر الدعوة في أرجاء الأرض بسرعة لا مثيل لها في التاريخ. و يقيم العدل الرباني في كل مكان. ويحارب الكفر والشرك والطواغيت فيسحقها و ينصر عليها. و ينشيء حضارة فذة تجمع بين الروح والمادة، وتعمل للآخرة دون أن تنسى عمارة الأرض:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾

سورة القصص: ٧٧

وتلك هي حصيلة التوحيد. حصيلة تجمع النفس البشرية في اتجاه واحد. إلى الله.

أما الشرك فهو يشتت تلك الوحدة التي فطر الله النفس البشرية عليها، ويمزقها.

يصلى الإنسان - إذا صلى! - لإله. و يبيع و يشترى و يبتغى الرزق باسم إله آخر يحل له الربا ويحل له الغش والخداع بغية الربح. ويمارس شهواته باسم إله ثالث يحل له العلاقات غير المشروعة و يزين له الخبائث. وقد يتوجه إلى بشر مثله أو إلى صنم من الأصنام فيطلب منه البركة أو يطلب منه أن يقربه إلى الله زلفى .. وهكذا تتشتت نفسه في محاولة استرضاء هذه الأرباب المتعددة التي كثيراً ما يكون لكل منها مطالب تخالف مطالب الأخرى وتعارضها ..

وفي النهاية يفقد نفسه بعد أن يفقد أمنه وطمأنينته:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة الزمر: ٢٩

وأوضح مثال على ذلك تلك الجاهلية المعاصرة التي يمارسها الناس في أكثر أرجاء الأرض.

ولقد كانت هذه الجاهلية تبهر الناس وتخدعهم بالتقدم العلمي والمادي الهائل الذي حصّلته. ولكنها تكشفت - حتى لأصحابها - عن تمزق نفسي لا مثيل له في التاريخ، يتمثل في التزايد المستمر لحالات القلق والجنون والاضطراب العصبي والنفسي والانتحار والاغراق في المسكرات والمخدرات!

وأخيراً تصايح الشباب هناك بأنه يحس بالضياع، ولا يجد لحياته معنى، ولا يجد نفسه في اتجاه يكسبها الاستقرار والطمأنينة!

وتلك هي الحصيلة الأخيرة للشرك، مهما بدا من مظاهر التقدم المادي والعلمي، لأن النفس الممزقة بين الأرباب المختلفة لا يمكن أن تجد الطمأنينة أو تحس بالاستقرار.

٥ - ومن نتائجه إحباط العمل:

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ سورة الزمر ٦٥

والحبوط مأخوذ من «حبطت الناقة» إذا انتفخ بطنها وماتت نتيجة تناولها لطعام سام، و يراد به ضياع نتيجة العمل وانقلابه بالوبال على صاحبه.

والآية تقول للرسول صلى الله عليه وسلم إن الله قد أوحى إليك كما أوحى إلى النبيين من قبلك أن الشرك يحبط العمل و يفسده، و يئول في النهاية إلى الخسران.

وتشير الآية إلى الخسران في الحياة الآخرة بدخول النار والعياذ بالله.

ولكن الخسران الذي تشير إليه الآية لا يقتصر في الحقيقة على الدار الآخرة. فنحن نرى آثار ذلك الخسران في الحياة الدنيا بادية واضحة في الجاهلية المعاصرة، كما أشرنا في الفقرة السابقة.

إن الناس في الجاهلية المعاصرة قد انتفخوا من كثرة ما أعطاهم الله استدراجاً عن طريق التقدم العلمي من سيارات وثلاجات وطائرات وصواريخ وقنابل ذرية ونوو ية وأموال وخيرات من كل الأنواع.

انتفخوا بكل ذلك حتى وصلت بهم «النفخة» إلى الاستكبار على الله، والقرآن يقول عن أمثالهم:

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ سورة غافر: ٨٣

ولكنه انتفاخ كانتفاخ الناقة الحابطة بالغذاء المسموم.

فاستثمار خيرات الأرض حالياً إلى حد لم يبلغه في التاريخ، والفقر الجاثم على كثير من ربوع الأرض ليس له كذلك مثيل في التاريخ!

وتقدم الطب بلغ درجة لم يصلها من قبل قط، ونسبة المرض كذلك في تزايد مستمر، وتنشأ أمراض جديدة لا عهد للبشرية بها من قبل!

والتنادى بالحريات السياسية والحريات الإنسانية يشبه الدوىّ في برلمانات الأرض، وصحفها ووسائل إعلامها، والعبودية التي يعيش الناس فيها في أكثر بقاع الأرض أبشع عبودية في التاريخ.

ووسائل المتاع التي اخترعها البشر ليتناولوا بها أكبر قسط من متاع الأرض لا مثيل لها في كثرتها وتنوعها واستغراقها لحياة الناس، ودرجة الشقاء التي يحسها الناس من أول الاضطرابات النفسية إلى الجنون لا مثيل لها كذلك في كل التاريخ!

وصدق الله العظيم:

﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

٦ ـ ومن آثار الشرك الأكبر خلود صاحبه في النار: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾

سورة النساء: ١١٦ ـ ١٢١

وأى شيء يمكن أن يكون أفظع من ذلك وأبشع ؟

إن الحريق هو أفظع ما يتعرض له الإنسان في الحياة الدنيا لأنه شيء لا يطاق.. شيء لا تستطيع احتماله الأعصاب. ومع ذلك فما أهونه وأيسره بجانب حريق الآخرة.

إنه ـ مهما اشتد ومهما امتد ـ لن يتجاوز دقائق قد تمتد إلى أيام .. ثم بعد ذلك إما أن يشفى صاحبه وإما أن يموت. فكيف إذا كان لا يشفى قط ومع ذلك لا يموت ؟

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ سورة النساء: ٥٦

عذاب ساعة أو ساعات لا يحتمله الإنسان في الحياة الدنيا، فهل يستطيع أن يحتمل العذاب الذي يصل إلى درجة الاحتراق الكامل ثم يعود الجلد ـ الذي يشتمل على أعصاب الحس ـ جديداً، ليحس صاحبه العذاب من جديد.

فهل من الحكمة أن يعرض الإنسان نفسه ـ بارتكاب الشرك ـ إلى هذه الدرجة الفظيعة من العذاب ؟

إن الناس في الحياة الدنيا يتقون الحريق بكل وسيلة، ويحاولون جهدهم ألا يصيبهم ذلك الحريق ..

فما أغفل المشرك الذي يهرب جهده من لذعة عابرة في الدنيا، ثم يركض بقدميه ركضاً ليلقى بنفسه في الحريق الذي لا يزول أبداً ولا يستطيع أن يخرج منه بعد أن يدخل فيه .

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

سورة البقرة: ١٦٥ ـ ١٦٧

الإلحاد: أسبابه ودوافعه

الإلحاد الذي ينتشر اليوم في أوروبا، شرقها وغربها . و يتبجح بإنكار وجود الله و ينفي أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق الرازق المحيى المميت وأنه خالق الكون ومدبره، ظاهرة لا مثيل لها في تاريخ البشرية من قبل، من حيث سعة انتشارها، وتأثيرها في حياة الناس وأفكارهم وتصوراتهم، وما أحدثته من تحلل وفساد خلقي .

حقاً، لقد وجدت نماذج من الإلحاد في التاريخ القديم . فقد وجد الدهريون، الذين ينكرون البعث، و ينسبون الموت للدهر بدلا من الله، أولئك الذين أشار القرآن إليهم:

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ سورة الجاثية: ٢٤

وهؤلاء هم البذرة الأولى للذين يقولون اليوم «بالطبيعة» بدلا من الله، فيرتكبون ذات الجهالة التي وقعت فيها جاهليات قديمة من قبل .

ووجدت نماذج من التحلل الخلقي الذريع إلى جانب الإلحاد، كما حدث في المزدكية التي انتشرت في بلاد فارس فترة من فترات التاريخ وأباحت شيوعية المال والنساء . وأنشأت لوناً من الفوضى الخلقية لا مثيل له فيما سبق من القرون . وأولئك هم البذرة الأولى للشيوعية المعاصرة التي قدمها ماركس ولينين .(١) .

ولكن هؤلاء وأمثالهم كانوا قلة في حياة البشرية من قبل .

ذلك أن الانحراف الأكبر الذي يقع في عقائد الناس في جاهليتهم هو الشرك كما أسلفنا وليس الإلحاد . لأن الفطرة ـ وإن ضلت ـ تظل تؤمن بوجود الله ولكنها تشرك معه آلهة أخرى . أما الإلحاد ـ بمعنى إنكار وجود الله أصلا ـ فهو شذوذ نادر حتى في الفطرة المنحرفة،

---

(١) تنسب المزدكية إلى « مزدك » الذي عاش في فارس في القرن السادس الميلادي ونشر مذهبه الذي يدعو إلى الاباحية الكاملة .

سببه انطماس غير عادي في البصيرة، يجعل الإنسان يعيش بكامله في عالم الحس، فيؤله المحسوس وحده، و ينفي وجود إله:

﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝١٠٣﴾

سورة الأنعام: ١٠٣

لذلك كان الإلحاد - كما قلنا - أمراً نادراً في تاريخ البشرية.

أما البشرية المعاصرة فقد انتشر فيها الإلحاد بصورة غير مسبوقة من قبل. ولا بد أن تكون هناك أسباب غير عادية هي التي أدت إلى انتشاره بهذه الصورة البالغة القبح.

إن السبب الرئيسي في إلحاد اليوم هو ذات السبب في كل إلحاد حدث في التاريخ: انطماس غير عادي في البصيرة، يؤله المحسوس وحده و ينفي وجود الله.

ولكن الذي نبحث هنا عن أسبابه ودوافعه هو انتشار هذه الظاهرة على نطاق واسع غير معهود من قبل. بحيث يصبح هذا العدد الهائل من البشر مطموس البصيرة بهذه الصورة غير العادية، فيؤمن بالمحسوس وحده و ينكر وجود الله.

وما دامت الفطرة - حتى في انحرافها - لا تصل إلى هذه الصورة إلا في حالات شاذة نادرة، فلا بد أن هناك أشياء غير عادية في حياة الناس في أوروبا - التي ينتشر فيها الإلحاد - قد مسخت طبائع النفوس هناك، فلم تقف في انحرافها عند درجة الشرك. إنما تجاوزتها إلى الإلحاد الذي يجمع في حقيقته بين الشرك والكفر: الشرك بمنح خصائص الألوهية لغير الله، والكفر بإنكار وجود الله.

ولا بد لنا من لمحة سريعة عن حياة أوروبا تبين لنا أسباب هذه الظاهرة الخطيرة غير العادية في حياة البشرية.

أولا - دور الكنيسة الأوربية في إفساد النصرانية المنزلة من عند الله:

بعث الله سيدنا عيسى بالحق، وأنزل عليه الإنجيل يبين للناس حقيقة التوحيد، و يدلهم على الشرائع التي ينبغي أن تحكم حياتهم بأمر من الله:

وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ سورة المائدة: ٧٢

وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ سورة آل عمران: ٥٠

ولكن المجامع التي أنشأتها الكنيسة الأوربية لتقرير أمور العقيدة قد أفسدت هذا الدين الرباني المنزل من عند الله وشوهت صورته تشويهاً بالغاً من ناحيتين:

الأولى: ناحية الاعتقاد، بأن جعلت الله ثلاثة بدلا من واحد، وجعلت المسيح ابن مريم إلها بدلا من كونه بشراً رسولا كبقية الرسل والأنبياء. وفي ذلك يقول القرآن:

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ سورة المائدة: ٧٢

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ

سورة المائدة، الآية ٧٢، ٧٣

الثانية: ناحية الحكم بما أنزل الله في الإنجيل. فقد أبطلوا الحكم بشريعة الله المنزلة إلا فيما يسمى «الأحوال الشخصية»، أي الزواج والطلاق، أما بقية أمور الحياة فقد بقي القانون الروماني يحكمها بدلا من شريعة الله. وفي ذلك يقول القرآن:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم[1] بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ[2] وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ[3] ﴿٤٧﴾﴾ سورة المائدة الآيتان ٤٦، ٤٧

و بذلك أفسدت الكنيسة الدين النصراني المنزل من عند الله إفساداً كاملا وأصبحت أوروبا واقعة في الشرك منذ أوائل اعتناقها للمسيحية! وكان هذا الشرك مقدمة لمزيد من الفساد في الحياة الأوربية .

ثانياً ـ موقف الكنيسة من العلم :

في العصور الوسطى كانت أوربا تعيش في ظلام الجهل والخرافة، ومن هنا ينطبق عليهم وصف «العصور الوسطى المظلمة» كما يعبرون عن حياتهم في تلك الفترة من تاريخهم .

ثم وقعت بينهم و بين المسلمين سلسلة من الحروب هي المعروفة في التاريخ باسم الحروب الصليبية ، التي استغرقت قرابة قرنين من الزمان، من القرن الحادي عشر الميلادي إلى القرن الثالث عشر.

وفي تلك الحروب احتك الصليبيون بالمسلمين وعرفوا عن كثب مزايا الحياة الإسلامية وفضائلها ، وما تحويه من حضارة وعلم، فتأثروا بها تأثراً بالغاً، وحاولوا إقامة حياتهم في أوربا على ضوء بعض المبادىء والقيم التي وجدوها عند المسلمين . كما جاءهم التأثير من ناحية أخرى باحتكاكهم بالمسلمين في الأندلس والشمال الإفريقي وصقلية الإسلامية وجنوب إيطاليا الإسلامي حيث كانت المدارس والجامعات الإسلامية مزدهرة يفد إليها طلاب العلم من كل مكان في الأرض، و يؤمها الأوربيون لنيل العلم على يد الأساتذة

(١) أي على آثار أنبياء بنى إسرائيل السابقين لعيسى بن مريم . الذين كانوا يحكمون بمقتضى شريعة التوراة .

(٢) تكررت هذه الاشارة في الآية مرتين « ومصدقا لما بين يديه من التوراة » الأولى لعيسى بن مريم ، أى أن عيسى جاء مصدقا للتوراة، والثانية للإنجيل ، بمعنى أن الإنجيل جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة . أى مؤكداً صدق نزولها من عند الله .

(٣) الفاسقون هنا معناها الكافرون .

المسلمين، و يتعلمون العربية لتلقى العلم وترجمة الكتب الإسلامية العلمية إلى لغاتهم الأوربية .

ومن هذين التأثيرين بدأت أوربا تنهض وتخرج من عصورها الوسطى المظلمة .

ولكن الكنيسة وقفت ضد الحركة العلمية التي بدأت تنشأ وتنتشر في أوربا .. و يرجع ذلك إلى سببين في آن واحد :

السبب الأول: خوفها على مكانتها في نفوس الجماهير. فقد كانت تلك المكانة قائمة على مجموعة الخرافات التي تبثها الكنيسة في عقول الناس، وتقول لهم: إن هناك في الدين أسراراً لا يعرفها إلا رجال الدين، وإن على الناس أن يخضعوا لرجال الدين خضوعاً أعمى، ولا يسألوا عن تلك الأسرار، وإنما يطلبون البركة من رجال الدين بطاعتهم إياهم في كل ما يأمرون به . وهم ـ أى رجال الدين ـ كفيلون بتقريبهم إلى الله بهذه الطاعة ليغفر لهم ذنوبهم .. وكانت الكنيسة تخشى إذا انتشر العلم أن تتفتح أعين الناس على تلك الخرافة وأمثالها فتضيع مكانة رجال الدين في نفوسهم ولا يعود للكنيسة ذلك السلطان المقدس عند الجماهير ! .

والسبب الثاني: أن ذلك العلم كان في الحقيقة هوعلم المسلمين . وكان الأوربيون الذين يبتعثون إلى المدارس والجامعات الإسلامية ينقلون معهم علوم المسلمين، و ينقلون معها في الوقت ذاته تأثراً واضحاً بالإسلام والقيم والمبادىء الإسلامية . فخشيت الكنيسة أن ينتشر الإسلام في أوربا مع الحركة العلمية المنقولة أصلا عن الجامعات الإسلامية والعلماء المسلمين . لذلك قامت تحارب العلماء الأوربيين الذين تأثروا بعلوم المسلمين محاربة وحشية، و يهددهم بالتقتيل والتعذيب والتحريق في النار حتى الموت إذا لم يتراجعوا عن الأفكار العلمية التي نقلوها عن علماء الإسلام ! وكان هذا بداية انحراف خطير بالغ الأثر في الحياة الأوربية هوفصل العلم عن الدين، وإيجاد عداوة بين الدين والعلم، و بين المتعلمين والدين! واستمر هذا الانحراف يتزايد على مر العصور في أوربا حتى أصبح الدين

في حس المتعلم الأوربي ممثلا للخرافة، وأصبحت «النظرة العلمية» في تصوره هي إبعاد مفاهيم الدين كلها من مجال البحث العلمي، وعدم الإشارة إلى الله تعالى أصلا في أية حقيقة من حقائق العلم تتصل بالكون أو الحياة أو الإنسان(١).

ثالثاً ـ طغيان الكنيسة ورجال الدين:

لم تكتف الكنيسة بما أفسدته من دين الله المنزل، ولا بموقفها المعادى للعلم وحقائقه النظرية والتجريبية، بل أضافت إلى ذلك طغياناً بشعاً على أرواح الناس وعقولهم وأموالهم وأجسادهم:

١ ـ ففرضت عليهم احتكار الوساطة بين الناس و بين الله، فلا يملك الإنسان أن يتصل بر به إلا عن طريق الكاهن .. ولا تقبل منه التوبة والاستغفار عن ذنوبه إلا بالجلوس أمام الكاهن على «كرسى الاعتراف» وإعلان الكاهن له بقبول توبته.

٢ ـ وفرضت عليهم أفكاراً معينة عن شكل الأرض وعمر الإنسان على سطح الأرض، تخالف ما وصلت إليه حقائق العلم الثابتة، وقالت لهم: إن هذه أفكار مقدسة لأنها منزلة من عند الله، ومن خالفها فهو كافر ملحد.

٣ ـ وفرضت عليهم العشور، أى أن يقدموا عشر مالهم هبة خالصة للكنيسة، لا لله ولا للمساكين، إنما ليعيش بها رجال الدين في بذخ لا يحلم به الأباطرة في عصر من العصور.

٤ ـ وفرضت عليهم السخرة، أى أن يعملوا في فلاحة الأرض المملوكة للكنيسة يوماً واحداً من كل أسبوع سخرة بغير أجر.

٥ ـ وفرضت عليهم الخضوع المذل لرجال الدين، فيتعين على الناس أن ينحنوا عند مرور الكاهن بهم حتى تلتصق جباههم بالأرض، ولو كانت الأرض مملوءة بالوحل والطين.

---

(١) من هنا يقول داروين (ان الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها) فينسب الخلق لما سماه «الطبيعة» و يرفض أن ينسبه لله. ومن هنا كذلك يرد سم الطبيعة في الكتب العمية الاوربية حيث كان ينبغي أن يذكر اسم الله. و يرون هناك أن ذكر اسم الله في أى بحث علمي يفقده الطابع العمي !!

وأضيف إلى ذلك كله أنه حين قامت الجماهير في أوربا في العصور الحديثة تطالب بحقوقها المسلوبة، وتطلب رفع الظلم الواقع عليها من رجال الإقطاع، وقفت الكنيسة إلى جانب الظالمين من رجال الإقطاع وهددت الجماهير المستعبدة بغضب الله عليها إن ثارت على ظلم الأسياد !.

وكان لذلك كله آثار بعيدة في تنفير الناس من الكنيسة، وبالتالي من الدين !.

رابعاً ـ الرهبانيـــة:

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ سورة الحديد، الآية ٢٧ .

وقد تقبلها الله منهم ـ وإن كان لم يكتبها عليهم ـ لأنهم ابتغوا بها رضوان الله في مبدأ أمرهم . ولكنهم لم يرعوها حق رعايتها، بل تحولت الأديرة التي يسكن فيها الرهبان والراهبات إلى مباءات من الفساد الخلقى أبشع بكثير مما يجرى في داخل المجتمع على أيدي الفساق المنحلين ! وفي ذلك يقول القرآن :

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ سورة الحديد، الآية ٢٧ .

وقد ظلت السيرة السيئة التي يتناقلها الناس عن الحياة الخاصة لرجال الدين تزداد سوءاً حتى صارت سخرية الساخرين، وصارت كذلك منفرة للناس من الدين .

خامساً ـ مهزلة صكوك الغفران :

وذلك حين زعم البابا أنه يضمن المغفرة للناس عند الله ويملك أن يدخلهم الجنة مقابل دفع مبالغ معينة من المال ! وكتب صكوكاً ـ اشتهرت باسم صكوك الغفران، يقول فيها: أنا البابا.. فلان.. أمنح المغفرة لفلان من الناس عن كل ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر، وأنه أصبح بريئاً من الذنوب كيوم ولدته أمه، وأنه يدخل الجنة يوم القيامة و يكون مباركاً عند

الرب ! ثم راح يبيع هذه الصكوك للناس بالمال! فصاروا يرتكبون من الذنوب والجرائم ما يرتكبون، ثم يشترون صكوك الغفران من البابا متوهمين أنهم يدخلون بها الجنة و ينالون بها مغفرة حقيقية من عند الله !.

واتسعت الدائرة حين وكل البابا مَنْ دونه من رجال الدين في بيع الصكوك للناس حتى صارت المسألة مهزلة ضخمة لا تؤدى في النهاية إلى توقير الدين ولا رجاله المزعومين.

لذلك كله ظل نفور الناس من الدين يتزايد على مر العصور في أوربا حتى انسلخوا منه جملة في العصر الحديث !.

سادساً ـ قيام النهضة في أوربا على غير أساس من الدين:

قلنا من قبل: إن الكنيسة قامت تحارب الحركة العلمية في أوربا لأنها كانت تحمل معها تأثيراً إسلامياً واضحاً، لأن المبتعثين الأوربيين إلى بلاد الإسلام كانوا يرجعون متأثرين بالروح الإسلامية، وبما شاهدوه في بلاد المسلمين من تقدم علمي وحضاري. ونضيف هنا أن الكنيسة حين فزعت من هذا التأثير الإسلامي الذي يحمله المبتعثون معهم، وخشيت من انتشار الإسلام في أوربا مع الحركة العلمية المستمدة من علوم المسلمين، قامت بحملة واسعة لمحاربة هذا التأثير، وجندت كتابها ليكتبوا ضد الإسلام، و يشوهوا صورته النقية، و يتهجموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم و يتقولوا عليه الأقاويل، و يتهموا المسلمين بكل كبيرة في الأرض، ليحولوا بين أوربا و بين اعتناق الإسلام !.

وكان لهذه الحملة المزدوجة ضد العلوم المستمدة من المسلمين وضد المسلمين والإسلام آثار بعيدة المدى في الحياة الأوربية.

فأما الحملة ضد الإسلام فقد أثرت بالفعل في نفوس الأوروبيين فصدتهم عن اعتناق الإسلام، وساعد على هذا الصد أن الهزيمة التي منى بها الصليبيون في حروبهم مع المسلمين كانت ما تزال تحز في نفوسهم. وأما الحركة العلمية والحضارية المستمدة من الأصول الإسلامية فقد مضت في سبيلها، لأن الناس أحبوا ثمار العلم بعد أن أفاقوا من جهالتهم. وأحبوا ثمار الحضارة حين رأوها متاحة بين أيديهم. ولكن هذه الحركة العلمية والحضارية

قامت مع الأسف على غير أساس من الدين، بل معادية للدين في الحقيقة. ذلك أن مواقف الكنيسة السابقة كلها جعلت المثقف الأوربي المتحضر ينفر من الدين الذي تقدمه له الكنيسة وهو المسيحية، كما أن حملة الكنيسة العفيفة ضد الإسلام جعلت هذا المثقف لا يقبل الدخول في الإسلام حتى وإن كان يستمد أصول حضارته من المسلمين!.

ومن هنا نشأ الموقف الشاذ الذي أدى إلى الأزمة المعاصرة التي تعيش فيها البشرية في الوقت الحاضر، وهو قيام حركة علمية ضخمة، وتقدم مادى واسع بعيداً عن الدين ومعادياً له، وبعيداً عن كل القيم الروحية والأخلاقية التي لا تستقيم بدونها حياة الإنسان على الأرض. وأصبح الأوربي كلما زادت علومه وتقدمه المادي يغريه ذلك بمزيد من البعد عن الدين!.

سابعاً - دور اليهود في إفساد الحياة الأوربية:

في هذا الموقف الشاذ الذي هيأته الكنيسة الأوربية بمواقفها المختلفة ظهر اليهود ليدفعوا عجلة الفساد دفعاً إلى الأمام.. فهم كما وصفهم الله في القرآن:

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ سورة المائدة، الآية ٦٤.

فقد رأى اليهود الفرصة سانحة لينقضوا على المسيحية عدوهم القديم، فأطبقوا عليها من كل جانب، يبثون الأفكار الهدامة، ويفسدون الأخلاق وينشرون كل رذيلة باسم التقدم والحضارة تارة وباسم الحرية الشخصية تارة أخرى حتى استطاعوا بالفعل أن يفسدوا الحياة الأوربية بكل أنواع الفساد التي لا تخطر على البال.

فمن ناحية قام ماركس - وهو يهودى - يدعو إلى الشيوعية والإلحاد، وهو صاحب القولة المشهورة: الدين أفيون الشعوب!.

ومن ناحية أخرى قام فرويد - وهو يهودى - بنشر نظرياته عن الجنس، التي يدعو فيها إلى التحلل من الدين والأخلاق والتقاليد بحجة أنها تسبب الكبت والعقد النفسية والعصبية!.

ومن ناحية ثالثة أشرف اليهود على الحركة الصناعية الرأسمالية في أوربا ليشغّلوا فيها أموالهم بالربا، وعن هذا الطريق سيطروا على كل نواحي الحياة الأوربية فأفسدوا فيها مفاسد جمة.

١ - فقد أغروا المرأة بالخروج إلى العمل في المصانع، فلما كثر عدد النساء العاملات أغروهن بالتبرج بالزينة والأزياء الفاضحة لتفسد أخلاقهن و يفسد الشبان معهن. ومن وراء ذلك تكسب بيوت الأزياء و بيوت الزينة مكاسب مالية هائلة وترجع كلها في النهاية إلى اليهود(١)!.

٢ - أطلقوا شعارات «الحرية والإخاء والمساواة» وتحت شعار الحرية نشرت الإلحاد والفساد الخلقي باعتبارهما من أبواب الحرية الشخصية للإنسان! فمن شاء أن يلحد فليلحد.. ومن شاء أن يتبذل و يتحلل فليفعل ذلك، وليس لأحد أن يتدخل في «حريته الشخصية»!.

٣ - حطموا كيان الأسرة بإغراء المرأة بالخروج للعمل. وجعلها تنظر إلى البيت والأمومة ورعاية النشء على أنها قيود سخيفة تحد من انطلاقها وحريتها..

٤ - أنشئوا أجيالا من الأطفال بلا أسر لأن الأم مشغولة بالعمل في الخارج ولا تجد فرصة حقيقية لتربية الأطفال، فنشأت فرق الهيبيين والخنافس وغيرها وانتشرت في مساحات واسعة من الأرض.

تلك بعض المفاسد التي أحدثها اليهود في الحياة الغربية، وما تزال عجلة الفساد دائرة تأتي كل يوم بجديد(١).

ثامناً - مسئولية المسلمين عن ذلك كله:

وأخيراً لا بد لنا أن نذكر أن الأمة المسلمة مسئولة مسئولية كبيرة عن هذا الفساد الحادث اليوم في الأرض. إن هذه الأمة لم يخرجها الله ويجعلها خير أمة في التاريخ لتعيش

---

(١) قال اليهود في كتابهم المسمى «بروتوكولات حكماء صهيون»: إنهم سينشرون الإلحاد والتحلل الخلقي في كل الأرض، كما قالوا: إنهم سينشرون الشيوعية. و يستطيع الطالب أن يرجع إلى هذا الكتاب إذا شاء ليعرف الدور الكامل الذي قام به اليهود لافساد الحياة الأوروبية توطئة لإفساد كل الحياة البشرية.

في حدود نفسها فحسب، بل لتكون قائدة ورائدة لكل البشرية:

قال تعالى:

(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

سورة آل عمران ، الآية ١١٠

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا

سورة البقـرة ، الآية ١٤٣

وقد ظل الخير يعم البشرية كلها حين كانت هذه الأمة قائمة برسالتها تنشر النور والهدى في آفاق الأرض، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله وتدعو إلى الإيمان.

فلما تخلت هذه الأمة عن رسالتها في القرون الأخيرة، وأصابها الضعف والوهن تبعاً لذلك، فقد تولت قيادة البشرية أمة جاهلية لا تؤمن بالله ورسله، ولا تحكّم شريعته في الحياة، ومن ثم أتيحت الفرصة لشياطين الجن والإنس أن يعبثوا فساداً في الأرض، و ينشروا الكفر بدلا من الإيمان.

ولن تصلح الأرض مرة أخرى حتى يعود المسلمون عودة صادقة إلى دينهم الحق وعندئذ يتحقق وعد الله لهم بالاستخلاف والتمكين والتأمين كما تحقق مرة من قبل:

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا

سورة النور، الآية: ٥٥.

هذه اللمحة من تاريخ أوربا تعيننا على تفهم الجو الحالي السائد في الغرب والذي انتشر فيه الإلحاد والفساد الخلقي.

لقد نشأ من العوامل الثلاثة السالفة الذكر، وهي موقف الكنيسة المسيحية ودور اليهود في الإفساد وتخلي المسلمين عن رسالتهم، وجود جو معاد للدين في أوربا، صاح لكل جراثيم الفساد أن تنتشر فيه .

ولعل أخطر هذه الجراثيم جميعاً هو الإلحاد والفساد الخلقي، لأن الإنسان إذا بعد عن الله، وعن تطبيق منهج الله في الأرض، فلا حدود للهاوية التي يمكن أن ينحدر إليها . والواقع الأوربي الحاضر خير برهان على هذه الحقيقة المؤلمة، فإن الانفصال القائم بين الدين والعلم، و بين الدين والحياة، قد أدى إلى فساد الفطرة البشرية ذاتها، فضلا عما أصابها من أمراض القلق والجنون والانتحار والأمراض النفسية والعصبية وانتشار الجريمة والإدمان على الخمر والمخدرات حتى بين الشباب المراهقين .

وذلك كله راجع إلى البعد عن الله، والبعد عن الدين .

قضية الإلحاد
لا تقوم على أساس من العقل ولا من العلم

إن قضية الإلحاد المنتشر في الأرض اليوم لا تقوم على أي أساس من العقل ولا من العلم، في عصر يزعم لنفسه أنه يعيش في كل أموره على أساس من العقل وأساس من العلم .

فهؤلاء الملحدون حين تواجههم قضية الخلق، وهي القضية التي تتحدى كل منكر لوجود الله، يقولون إن «الطبيعة» هي التي تخلق ! .

وهذا كلام غير علمي، وإن كان يرد على ألسنة من يسمونهم «علماء» في الجاهلية المعاصرة! .

فما الطبيعة على وجه التحديد ؟! .

يقول دارون إن الطبيعة تخلق كل شيء ولا حدَّ لقدرتها! .

ثم يعود فيقول: إن الطبيعة تخبط خبط عشواء ! .

يا سبحان الله ! .

هذا الإله المزعوم الذي ينسبون إليه الخلق لا هو عاقل ولا هو حكيم .. فهو على حد قول دارون يخبط خبط عشواء وليس عنده تدبير منظم لعملية الخلق، فكيف بالله يستطيع هذا الإله المزعوم المتخبط أن يدير الكون بهذه الدقة المعجزة التي نشهد آياتها في كل ما حولنا من شئون الكون والحياة ؟ .

وكيف استطاع هذا الإله المزعوم أن يخلق الإنسان على هذه الصورة؟ إن الإنسان كائن عاقل ومدبر وله إرادة وغاية وهدف . فهل يستطيع شيء لا إرادة له ولا غاية أن يخلق كائناً له إرادة وغاية ؟ وهل يستطيع شيء لا عقل له أن يخلق كائناً مفكراً له عقل ؟! .

أما العلم فلنسمع فيه شهادة بعض العلماء الذين فتح الله بصيرتهم على جانب من الحقيقة وإن كانوا يعيشون في ذات الجاهلية المعاصرة التي تلف بلاد الغرب .

يقول عالم الأحياء والنبات «رسل تشارلز إرنست» الأستاذ بجامعة فرانكفورت

بألمانيا: «لقد وضعت نظريات عديدة لكي تفسر نشأة الحياة في عالم الجمادات، فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين، أو من الفيروس، أو من تجمع بعض الجزيئات البروتينية الكبيرة، وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التي تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات. ولكن الواقع الذي ينبغي أن نسلم به هو أن جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بفشل وخذلان ذريعين. ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع على أن مجرد تجمع الذرات والجزيئات عن طريق المصادفة يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخلايا الحية. وللشخص مطلق الحرية في أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة، فهذا شأنه وحده. ولكنه إذ يفعل ذلك فإنما يسلم بأمر أشد إعجازاً وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله الذي خلق الأشياء ودبرها.

«إنني أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها. وإن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته شهادة تقوم على الفكر والمنطق. ولذلك فإنني أومن بوجود الله إيماناً راسخاً»(١).

ويقول «أ. كريسي موريسون» رئيس أكاديمية العلوم بنيو يورك في كتابه بعنوان «الإنسان لا يقوم وحده»: «ومما يدعو إلى الدهشة أن يكون تنظيم الطبيعة على هذا الشكل، بالغاً هذه الدقة الفائقة. لأنه لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي بمقدار بضعة أقدام، لامتص ثاني أكسيد الكربون الأوكسجين، ولما أمكن وجود حياة النبات.

«ولو كان الهواء أرفع(٢) كثيراً مما هو فإن بعض الشهب التي تحترق الآن بالملايين في الهواء الخارجي كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية وهي تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلا في الثانية، وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق. ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض، ولكانت العاقبة مروعة. أما الإنسان فإن اصطدامه بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة، كان يمزقه إرباً من مجرد حرارة مروره».

---

(١) من مقال «الخلايا الحية تؤدي رسالتها». من كتاب «الله يتجلى في عصر العلم».

(٢) يقصد أقل كثافة.

«إن الهواء سميك بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعة ذات التأثير الكيميائي التي يحتاج إليها الزرع، والتي تقتل الجراثيم وتنتج الفيتامينات، دون أن تضر بالإنسان إلا إذا عرض نفسه لها مدة أطول من اللازم. وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور - ومعظمها سام - فإن الهواء باق دون تلوث في الواقع، ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان. وعجلة الموازنة العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء - أي المحيط - استمدت منه الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل والنباتات وأخيراً الإنسان نفسه» .(١)

و يقول في مكان آخر من الكتاب:

«إننا نقترب فعلا من عالم المجهول الشاسع، إذ ندرك أن المادة كلها قد أصبحت من الوجهة العلمية مجرد مظهر لوحدة عالمية هي في جوهرها كهربائية. ولكن مما لا ريب فيه أن المصادفة لم يكن لها دخل في تكوين الكون، لأن هذا العالم العظيم خضع للقانون.

«إن ارتقاء الإنسان إلى درجة كائن مفكر شاعر بوجوده هو خطوة أعظم من أن تتم عن طريق التطور المادي، ودون قصد إبداعي.

«وإذا سلمنا بوجود القصد، فإن الإنسان قد يعتبر جهازاً، ولكن ما الذي يدير هذا الجهاز؟ لأنه بدون أن يدار لا فائدة منه. والعلم لا يعلل من يتولى إدارته وكذلك لا يزعم أنه مادي.

« لقد بلغنا من التقدم درجة تكفي لأن نوقن بأن الله قد منح الإنسان قبساً من نوره ..

و يقول سير «أرثر طومسون» المؤلف الاسكتلندي الشهير تحت عنوان «العلم والدين»:
« .. فنحن نقرر عن روية أن أعظم خدمة قام بها العلم أنه قاد الإنسان إلى فكرة عن الله أنبل وأسمى. ولا نجاوز المعنى الحرفي حين نقول: إن العلم أنشأ للإنسان سماء جديدة وأرضاً جديدة، وحفزه من ثم إلى غاية جهده العقلي، فإذا به في كثير من الأحيان لا يجد السلام إلا حين يتخطى مدى الفهم، وذلك في اليقين والاطمئنان إلى الله»(٢) .

---

(١) ترجمة محمود صالح الفلكي بعنوان «العلم يدعو إلى الايمان».
(٢) من كتاب «عقائد المفكرين» للعقاد.

ولسنا نذكر هذه الشواهد لنستدل بها على وجود الله، فعندنا كتاب الله يكفينا، والفطرة التـي فطر الله الناس عليها تشهد بذاتها. ولكننا نذكرها فقط لأن بعض الذين فتنهم التقدم العلمي في هذا القرن يظنون أن العلم يقتضي عدم الإيمان بالله !!

آثار الإلحاد في واقع البشرية المعاصر

إن هـذه الموجة العاتية من الإلحاد، التي تسود أوروبا، شرقها وغربها، وتنتقل بالعدوى إلى بقية أرجاء الأرض، قد خلفت من الفساد في الحياة البشرية ما لا مثيل له من قبل، لأن العـالـم اليوم قد تداخلت قضاياه وتشابكت، وصار ما يحدث في أى جزء منه يؤثر بالضرورة في بقية الأجزاء، فكيف إذا كان الأمر بهذه الخطورة وعلى هذه الدرجة من التأثير!

يقول الله في كتابه الحكيم:

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ سورة الروم: ٤١

وأى عـمل يمكن أن يعمله الناس أسوأ من الإلحاد؟ وأى فساد أعظم من الفساد الناجم عنه؟

وإليك بعض النتائج التي ترتبت على هذا الإثم الخطير في حق الله:

١ ـ القضاء على القيم الروحية والمثل العليا:

إن الإنـسـان الـذي لا يـؤمـن بـوجود الله لا بد أن تنحط معاييره وقيمه، ونظرته إلى كل شيء في هـذه الحـيـاة. ذلك أن الإيمان هو الذي يقوى الجانب الروحي من الإنسان و يربطه بالمثل العليا إذ يربط القلب البشري بالله .

المؤمن هو الذي يعرف الهدف الحقيقي لحياته في الأرض، لأن الله يقول له:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ سورة الذاريات: ٥٦

فيعلم من ذلك أنه خلق ليعبد الله لا ليعبد شيئاً آخر غير الله .

والإنسان لا بد أن يعبد .. هكذا خلقه الله عابداً .. والعبادة جزء أصيل من فطرته . فإما أن يعبد الله، وإما أن يعبد شيئاً غير الله .

فإن عَبَد الله فقد التزم بطاعته، ونفذ أوامره ، فتستقيم حياته في الأرض ، و ينعم في الآخرة بجنة الله ورضوانه، وترتقى مشاعره، لأن الله يوجهه في كتابه الكريم وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم إلى كل جميل من الخصال . يوجهه إلى عمل الخير والإمتناع عن الشر . يوجهه أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه . يوجهه أن يكون أميناً صادقاً . يوجهه أن يكون عادلا قواماً بالقسط . يوجهه أن يكون نظيفاً في سره وعلانيته، نظيف الثياب نظيف البدن، نظيف المشاعر، ونظيف السلوك .

وأما إن كان لا يعبد الله، فسيعبد شيئاً آخر لا محالة .

يعبد بشراً مثله، يضع له تشريعات من عند نفسه يحل فيها ويحرم على هواه .. فيطيعه .
أو يعبد شهواته .. شهوة المال أو شهوة الجنس أو شهوة السلطان ..
أو ـ بتعبير القرآن ـ يعبد الشيطان لأنه في الحقيقة وجهة كل عابد لغير الله :

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝٦١﴾
سورة يس: ٦٠ ـ ٦١

فلننظر إلى الملاحدة في شرق الأرض وغربها، ماذا يعبدون، وإلى أى شيء توجههم عبادتهم ..

الشيوعي عبد للدولة، وللنظام الشيوعي، وللحزب الحاكم، وللزعيم، لأنه لا يملك أن يفتح فمه بكلمة واحدة ضد واحد من هؤلاء، وإلا كان نصيبه الموت . فهو ـ رضى أو كره ـ مستذل لهذه الأرباب كلها من أجل لقمة الخبز . من أجل أن يعيش !

والغربي عبد للمال، وللشهوات . المال هو الذي يحركه، فلا يتحرك إلا من أجل الكسب المادي . والمال هو القيمة التي يقوم بها الإنسان . فوجوده ومكانته في المجتمع مرهون بمقدار ما يتكسب من مال . الله يقول:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣﴾ سورة الحجرات: ١٣

وهم يقولون: إن أكرمكم عندنا أغناكم .. ولو كان الغنى قد جاء من السلب والنهب والسطو على أقوات ملايين من البشر في المستعمرات التي يستعمرها الغرب و ينهب أقواتها، وامتصاص دماء الملايين من العمال الذين يكدون و يكدحون، ثم يسرق عرقهم وجهدهم هذا الرأسمالي ليتجبر بها في الأرض .

ثم .. أين ينفقون أموالهم التي يجمعونها على هذه الصورة و يصبحون عبيداً لها في النهاية؟

إما أن ينفقوها في شهوات الجسد الجامحة التي تنحط بالإنسان إلى مرتبة الحيوان. وإما أن ينفقوها في الخراب والتدمير في الصراع الوحشي الدائر في الأرض !

تلك عباداتهم وذلك هو السلوك المترتب على عبادتهم . فمتى يشعرون بالقيم العليا أو يستجيبون لدواعيها؟

٢ ـ الإخلال بالتوازن في حياة الإنسان:

لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ سورة التين: ٤ ـ ٦

لا يستطيع الإنسان أن يحافظ على فطرته التي فطره الله عليها «في أحسن تقويم» إذا بعد عن طريق الله، بل إنه عندئذ يفقد توازنه فيقع «أسفل سافلين» .

ذلك أن الإيمان هو الذي يحفظ التوازن بين العنصرين المكونين لفطرة الإنسان :

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ سورة ص : ٧١ ـ ٧٢

فالإنسان مُكون كما يخبرنا العليم الخبير من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله . وهذه النفخة العلوية من روح الله هي التي أعطت الإنسان شفافية روحه ووعيه وإدراكه وقدرته على الإيمان بالغيب، ونفت عنه عتامة الطين وغلظته . و بهذه النفخة العلوية توازن تكوينه وصار في أحسن تقويم، وصارت له مطالب وغايات روحية إلى جانب مطالب الجسد وغاياته .

فإذا كفر الإنسان وألحد فقد أغلق النافذة المضيئة التي يستمد منها النور، ولم يبق له إلا عتامة الطين وغلاظة الحس . أى لم يبق له إلا الماديات والمحسوسات . إليها يتطلع، وفيها ينفق الجهد، وإليها يعود . وعندئذ تجذبه ثقلة الأرض فلا يستطيع أن يتوازن إزاءها، لأن الذي يمنحه التوازن إزاءها هو انطلاقة الروح التي تصل قلبه بالله، وتجعله يؤمن باليوم الآخر و يعمل حسابه في جميع أفعاله وأقواله فلا يسفل ولا يتدنى . فإذا فقدها فَقَد توازنه وأصبح أسفل سافلين كما يخبر الله عنه في كتابه الكريم .

والذي نراه اليوم في الجاهلية المعاصرة هو مصداق ذلك القول، فلأى شيء يسعى الناس، وعلى أى شيء يتصارعون؟ مطالب الجسد ومتاع الجسد وشهوات الأرض . وفي النهاية يفقد الإنسان إنسانيته و يعود كالحيوان، بل أسوأ من الحيوان:

أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ سورة الأعراف: ١٧٩

٣ ـ القضاء على وازع الضمير:

الضمير هو «النفس اللوامة» التي يقسم بها الله جل شأنه في كتابه العزيز:

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ سورة القيامة: ١ ـ ٢

وهذا القسم من الله العظيم الجليل جل شأنه له دلالته، فإن الله العظيم لا يقسم إلا بشيء عظيم . فإذا أقسم الله سبحانه وتعالى بالنفس اللوامة، التي تلوم الإنسان على فعل الشر وتدفعه إلى عمل الخير، فلا شك أن هذه النفس ذات وزن كبير في ميزان الله وإنها لكذلك . لأنها هي المحور الحقيقي لارتقاء الإنسان ومحافظته على قيمه العليا، كما أنها المحور الحقيقي لاستقامة أمر البشرية في واقع حياتها .

فما الإنسان إذا فَقَد النفس اللوامة؟ إن نفسه حينئذ تكون هي النفس الأمارة.. أى الأمارة بالسوء .. منها ينبع السوء، ومنها ينتشر الشر في أرجاء الأرض .

---

(١) يأتي القسم في القرآن منفيا أحياناً ومثبتا أحياناً أخرى وكلاهما قسم . فمن أمثلة النفي « لا أقسم بيوم القيامة » « فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لوتعلمون عظيم » ومن أمثلة الاثبات « والضحى، والليل إذا سجى » « والفجر، وليال عشر» .

والنفس الأمارة بالسوء لا يهذبها ولا يرتقى بها، ولا يرفعها إلى مرتبة النفس اللوامة إلا الإيمان بالله، الذي يجعل الإنسان مستحقاً لرحمة الله المطهرة للنفس من دنسها .

﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ سورة يوسف: ٥٣

أما الإلحاد والكفر فهو يذهب بالنفس اللوامة ولا يبقى إلا النفس الأمارة بالسوء . ولقد يخيل إلينا لأول وهلة أن أوروبا الملحدة ذات ضمير . فالتاجر هناك لا يغش ولا يخدع . والعامل لا يكذب ولا يخلف مواعيده . وأمور التعامل الفردي تقوم على الصدق والأمانة .

وهذا صحيح في مظهره . ولكنها في الحقيقة ليست أخلاقاً بالمعنى الحقيقي للأخلاق . إنما هي أخلاق التاجر الذكي الذي يحرص على كسب ثقة الزبون إلى آخر المدى، فيتودد إليه بخصال الصدق والأمانة والإتقان .

أما المحك الحقيقي للضمير فله مجال آخر . .

فأين الضمير في معاملة الزنوج في أمريكا بالفظاظة والغلظة إلى حد القتل في عرض الطريق ؟

وأين الضمير في استعمار الشعوب ونهب خيراتها وإبقائها في حالة من الفقر والجهل والمرض والضعف والهوان ؟

وأين الضمير في موقف هيئة الأمم من قضية فلسطين، وتحويل أهلها إلى لاجئين؟

وأين الضمير في تقتيل المسلمين في الفلبين وغيرها من بقاع الأرض ؟

وأين الضمير في إلقاء فائض القمح في بعض البلاد في الأنهار والبحار لكي لا ينخفض سعره في الأسواق بينما الملايين في بقاع الأرض يتضورون جوعاً ولا يجدون حبة من القمح؟

وأين الضمير في إغراء الناس بالفساد الخلقي على أوسع نطاق لكي يكسب بضعة ألوف من الناس، ملايين الملايين من الأموال من أدوات الزينة والأزياء والأفلام السينمائية والصور الخليعة والخمر والمخدرات؟

كلا ! إن الإلحاد لا يبقى على النفس اللوامة إنما يغذى النفس الأمارة بالسوء ! .

٤ ـ اختلال الأمن والسلام في المجتمع والعالم :

لعل صورة العالم اليوم هي أسوأ صورة له في التاريخ . .

فلم تمر على العالم فترة من فقدان السلام واضطراب الأمن أحلك مما مر به في هذا القرن الأخير.

الحرب العالمية الأولى قتل فيها عشرة ملايين من الشباب ، والحرب العالمية الثانية قتل فيها أربعون مليوناً من البشر .. ولم تستقر أحوال العالم ما بين الحربين ولا قبلهما ولا بعدهما إلى هذه اللحظة .

والصراع الدائر لا يكف في أطراف الأرض، ولا تكاد تجد مكاناً ينعم بالاستقرار ومن أجل أى شيء يقوم هذا الصراع ؟

هل هو صراع لإحقاق الحق في الأرض ونشر العدل بين الناس؟

هل هو صراع لإعطاء الضعيف حقه ووقف القوى عن العدوان على الضعيف ؟

ليس هناك صراع واحد من الصراعات القائمة بين الدول اليوم يدور حول إحقاق الحق ونصفة المظلوم .. إنما كلها صراع دائر على مزيد من التسلط ومزيد من العدوان !

الدول التي تسمي نفسها « الدول الكبرى » تتصارع فيما بينها .. ولكن على أى شيء ؟ على حيازة أكبر عدد من « المستضعفين » والتسلط عليهم ! كما تتصارع الذئاب حول الفريسة ، ينهش بعضها بعضاً لا دفاعاً عن الفريسة لتنجو ، ولكن ليستأثر بها كل ذئب لنفسه دون بقية الذئاب ... والفريسة مأكولة أياً كانت نتيجة الصراع ؟

قانون الغاب هو الذي يحكم الناس في الأرض في غيبة من قانون الله .

قانون الغاب يقول: الغلبة للقوة لا لصاحب الحق . القوى يأكل الضعيف . وقانون الله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ سورة النحل: ٩٠

و يقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ سورة المائدة: ٨

ولكن أنى للكفار والملحدين أن يطبقوا قانون الله؟! بل الأحرى بهم أن يطبقوا القانون الذي تتعامل به الوحوش في الغاب، لأنهم حين يفقدون صلتهم بالله يفقدون إنسانيتهم و يصبحون مثل تلك الوحوش .

وليس الأمن الدولي وحده هو الذي فقده الناس حين قطعوا صلتهم بالله رب الكون والناس ..

إن مجتمعاتهم كذلك قد فقدت الأمن .

فإحصاءات العالم كلها تقول إن نسبة الجريمة في تزايد مستمر. سواء جرائم القتل أو جرائم اغتصاب الأموال واغتصاب الأعراض .

وفي كل عام تجتمع المؤتمرات في شتى بقاع الأرض لتتدارس هذه الظاهرة الخطيرة، يحضرها رجال القانون ورجال الاجتماع وعلماء النفس وعلماء الجريمة وغيرهم من «العلماء» .

ثم تطلع الإحصاءات الجديدة تقول: إن نسبة الجريمة تزداد باستمرار .

بل ليس الأمن الدولي ولا أمن المجتمع وحدهما هما اللذان أصابهما الخلل والاضطراب .

إنه الأمن النفسي كذلك. أمن كل نفس بذاتها، وفي حدود نفسها !

ونظرة إلى الإحصاءات تطلعنا على هذا الأمر. فالإحصاءات لا تقول إن نسبة الجريمة وحدها هي التي تتزايد، إنما تقول كذلك: إن نسبة أمراض القلق والجنون والانتحار والاضطرابات النفسية والعصبية هي كذلك في تزايد مستمر!

وصدق الله العظيم، فقد أخبرنا أن المصدر الحقيقي لطمأنينة النفس هو ذكر الله والاتصال بالله:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾

سورة الرعد: ٢٨

فمن أين للناس طمأنينة القلب حين يبعدون عن الله، بل حين يشمئزون من ذكر الله :

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ سورة الزمر: ٤٥

٥ ـ فساد الفطرة الإنسانية والهبوط إلى مستوى الحيوان:

أين «الإنسان» في هذه الدوامة التي تلف البشرية اليوم في بعدها عن الله ؟ .

هذا الشاب الذي نكث شعره وأسدله ولبس الكعب العالي والملابس الملتصقة بوسطه ومشى يتكسر و يتخلع كالبنت الخليعة .. هل هو «إنسان»؟

هذه الفتاة المسترجلة التي تدخن وتشرب الخمر وتلبس ملابس الفتى وتتشرد معه في مجاميع الهيبييز.. هل هي «إنسانة»؟

وهذه القطعان الهائمة من البنات والأولاد تمارس الجنس في الطريق والغابة والملهى والمرقص والنادي وفي أي مكان .. هل هم آدميون ؟

هذه النساء الكاسيات العاريات المتبرجات في الطريق بكل زينة يستعرضن أجسادهن لكل نظرة جائعة وسعار مجنون .. هل هن آدميات على مستوى « الإنسان » ؟

هؤلاء الرجال الذين لا يغارون على أعراضهم. لا على نسائهم ولا بناتهم ولا أخواتهم، ولا على أعراض الآخرين، لأن قضية العرض كلها لا تخطر لهم على بال هل بقي لهم شيء من فطرة «الإنسان»؟

وصنوف غيرها وصنوف من الانتكاس إلى مستوى الحيوان، بل أسوأ من الحيوان .. هل تعتبر في عداد «الإنسان»؟

لقد تجاوز الفساد حدود الأخلاق ..
إن الفطرة ذاتها قد مسخت فلم تعد هي فطرة الإنسان ..

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ سورة الملك: ٢٢

موقف المسلم من قضية الإلحاد

إن هناك ظروفاً معينة كما رأينا قد أثرت في الحياة الأوروبية وأدت إلى انتشار الإلحاد هناك .

ولسنا نقول: إن هذه الظروف تبرر ما حدث هناك من الكفر والتبجح به . فلا شيء على الإطلاق يبرر الكفر بالله، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾

سورة القيامة: ١٤ - ١٥

وقد أعطى الله الأوروبيين عقولا يفكرون بها كما أعطى كل البشر، وأرسل رسله لبيان الحق:

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٦٥﴾

سورة النساء: ١٦٥

فإذا أبطل الناس عمل عقولهم التي أعطاهم الله إياها، ولم يستمعوا لرسلهم أو حرفوا كلامهم، فهم مسئولون عن ذلك كله أمام الله يوم القيامة، ولا يغنيهم يومئذ أن يقولوا: إنا كنا عن هذا غافلين:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ۝١٧٢﴾

سورة الأعراف: ١٧٢

ولكنا نقول فقط: إن هذه هي الظروف الواقعية التي أحاطت بالناس في أوروبا وكان من نتائجها انتشار الإلحاد بينهم هناك .

فما موقف المسلم من قضية الإلحاد؟

إن موقفه واضح تماماً . فهو يرد هذه القضية من أساسها، و يبطلها إبطالا كاملا . فليس في أصول دينه ولا في تاريخه ما يؤدي إلى شيء مما حدث للناس في أورو با من اختلالات .

فأصول الدين قد تكفل الله بحفظها من الضياع وحفظها من التحريف .
يقول الله عن القرآن:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ الحجر: ٩

كذلك قيض الله لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم رواة حافظين وعلماء مدققين حفظوا السنة ومحصوا روايتها ونفوا الدخيل منها وأبقوا الصحيح ودونوه .

ومن هنا لم يحدث في العقيدة تحريف كما حدث في عقائد أهل الكتاب .

ثم إن الدين المنزل من عند الله بقى على صورته المنزلة عقيدة وشريعة، فلم يقسم كما فعل النصارى في دينهم، فجعلوه عقيدة منفصلة عن الشريعة . و بقى الإسلام قروناً عديدة يمارس في واقع الأرض بصورته المتكاملة فيحكم علاقة العبد بالرب، وعلاقات الحاكم بالمحكوم وعلاقات الناس بعضهم ببعض بغير تفريق بين جزء من هذا الدين وجزء .

وحتى حين انحرف أغلب المسلمين في القرون الأخيرة عن حقيقة الإسلام ففصلوا الدين عن الدولة، ووقعوا بذلك في شرك الطاعة والا تباع، فإن انحراف قرن أو قرنين لا ينفي واقع اثنى عشر قرناً كان المسلمون فيها يعتبرون الإسلام عقيدة وشريعة بغير تفريق، بعكس ما حدث عند النصارى في أورو با حيث لم يطبق دين الله في صورته المتكاملة قط .

ثم إن الإسلام ليست له «كنيسة» كالتي قامت في أورو با تحرف الدين المنزل وتفسده . وليس له «رجال دين» ولا «كهنوت» يحتفظون بالأسرار و يستحوذون بهذه الدعوى على أرواح الناس وعقولهم . إنما فيه علماء وفقهاء في أمور الدين و يستنبطون الأحكام المستمدة من الشريعة الثابتة المحفوظة، تنفيذاً لأمر ربهم:

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

سورة التوبة: ١٢٢

وهؤلاء العلماء والفقهاء مجتهدون، يخطئون و يصيبون، وليس لأحد منهم قداسة كرجال الكهنوت، ولا يحلون ولا يحرمون من دون الله كما وقع في تاريخ النصرانية. والناس يحترمونهم و يوقرونهم لعلمهم وفضلهم ولكنهم لا يتخذونهم أرباباً من دون الله كما صنع أهل الكتاب بأحبارهم ورهبانهم:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ سورة التوبة: ٣١

ثم إن الإسلام لا يعرف الفصل بين الدين والعلم، ولا بين الدين والحياة كما وقع في حياة النصارى في أوروبا.

إن الإسلام دين الفطرة. وليس في الفطرة انفصال بين الدين والعلم، ولا بين الدين والحياة!

ففي النفس البشرية نزعة فطرية إلى التدين، بما أودع الله في الفطرة من التوجه إلى الخالق وعبادته، ونزعته فطرية إلى تعلم العلم واستخدام ثماره في عمارة الأرض:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ سورة البقرة: ٣١

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ سورة هود: ٦١

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ سورة الجاثية: ١٣.

ولا تعارض في الفطرة السوية بين هاتين النزعتين الفطريتين، بل تسير النزعة إلى الإيمان والنزعة إلى المعرفة جنباً إلى جنب، وتتجهان وجهة واحدة.

وإذا كانت الجاهلية الأوروبية المعاصرة قد فصلت بين هاتين النزعتين الفطريتين

وأقامت بينهما العداء والصراع، وأنشأت غروراً عقلياً وفتنة بالعلم تزيد الإنسان بعداً عن الله كلما زادت حصيلته من العلوم والمعارف، كما قال القرآن في وصف الجاهليات السابقة في التاريخ:

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ سورة غافر: ٨٣

إذا كانت الجاهلية المعاصرة قد صنعت ذلك فإن الإسلام لا يعرف هذه التفرقة على الإطلاق، وكتاب الله ملىء بالتوجيهات للناس أن يتعلموا و يتدبروا في خلق الله و يستنبطوا السنن التي يجرى بها نظام الكون و يستفيدوا منها، و يكفى أن يكون الأمر الأول الموجه لرسول الله صلى الله عليه وسلم هو هذه الكلمة العظيمة: «اقرأ» التي تحمل التوجيه الشامل لطلب المعرفة. ثم يوجه الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يستزيد من المعرفة «وقل: رب زدني علماً». و يقول للمسلمين جميعاً:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ سورة البقرة: ١٦٤

و يقول لهم: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

سورة الإسراء: ١٢

و يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «طلب العلم فريضة»(١).

ولم يعرف تاريخ الإسلام الواقعي تلك الفرقة المصطنعة بين الدين والعلم، ولم يجر بينهما عداء ولا صراع، إنما ازدهرت الحركة العلمية الإسلامية تحت ظل العقيدة بل انبثقت

(١) رواه ابن ماجة.

منها انبثاقاً أول مرة وظلت تنمو في ظلها على الدوام .

كذلك لم يوجد في التاريخ الإسلامي ذلك الغرور العقلي ولا تلك الفتنة بالعلم التي تبعد الإنسان عن الله بمقدار ما يحصل من العلم !! إنما العكس في حس المسلم هو الصحيح . فالعلم منحة من الله . هو الذي علم آدم من قبل:

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ سورة البقرة: ٣١

وعلم بنيه من بعده: «الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان علمه البيان» . فكلما ازداد المسلم علماً زاد قرباً من الله وشكراً له على ما أولاه من نعمة:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ سورة فاطر: ٢٨

كذلك لا انفصال في الإسلام بين الدين والحياة ..

لا رهبانية في الإسلام ..

«ألا إني لأتقاكم لله، ولكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1] .

وإذا كانت الجاهلية الأوروبية قد فصلت بين الدين ونشاطات الإنسان المختلفة في الحياة، وأوجدت حالة نفسية وعقلية تزداد بعداً عن الله كلما فتحت عليها أبواب الرزق والتمكين في الأرض، فأصبحوا كما وصف الله قوم هود:

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ سورة الشعراء: ١٢٨ - ١٣٨

---

(١) رواه مسلم .

إذا كانت الجاهلية الأوروبية قد صنعت ذلك فإن الإسلام - دين الفطرة - لا يعرف هذه التفرقة ولا يقرها .. فالله يقول للناس:

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ الأعراف: ٣١

و يقول:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ سورة الأعراف: ٣٢

و يقول:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ سورة هود: ٦١

و يقول:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾

سورة القصص: ٧٧

و يقول:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾

سورة الملك: ١٥

لذلك قامت الحركة الحضارية الإسلامية في ظل العقيدة بلا صراع بينهما ولا عداء، وكانت بذلك فريدة في التاريخ . حركة تعمر الأرض، وتجوب الآفاق وتكشف مجاهيل الأرض، وتستثمر خيراتها بالفلاحة والصناعة والتجارة، وهي في كل هذا عابدة لله، تنشر النور الرباني في الأرض بنشر العقيدة الإسلامية، وتقيم العدل الرباني بين الناس بتطبيق شريعة الله .

ليس في أصول هذا الدين ولا في تاريخه شيء واحد مما حدث في أوربا وانتهى هناك بالإلحاد والبعد عن طريق الله . إنما يقوم الإسلام ابتداء على ربط القلب البشرى بالله، وتوثيق هذه الرابطة في كل عمل أو فكر أو شعور:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾

سورة الأنعام، الآيتان ١٦٢، ١٦٣ .

ومن هذه الرابطة الحية التي تربط القلب البشري بالله، ينطلق المسلم يتعلم و يعمل، يبتغي من فضل الله و يعمر الأرض، و يأخذ نصيبه من المتاع المعقول المحلل له من عند الله شاعراً بذلك كله أنه يقوم بدور الخلافة في الأرض:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

سورة البقرة، الآية ٣٠.

وقائم بغاية وجوده في الأرض من عبادة خالصة لله:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ سورة الذاريات، الآية ٥٦.

لذلك لا يتصور أن يتجه مسلم واحد في الأرض إلى الإلحاد!.

بل إنها الطامة الكبرى أن يجيء «مسلمون» من الذين كان المفروض فيهم أن يكونوا رواد البشرية إلى الإيمان وإلى الحق وإلى المنهج الرباني الأصيل.. يجيء هؤلاء «المسلمون!» فيتخلون عن دينهم الذي أنعم الله به عليهم حيث قال لهم:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ سورة المائدة، الآية ٣.

و يروحون يقلدون أوربا فيما وصلت إليه في جاهليتها من سوء، فيعتنقون الأفكار الهدامة المنتشرة هناك، و يتخذون الإلحاد مثلهم، و يغرقون مثلهم في التحلل الخلقي و يدعون إليه.

ألا إنها الهزيمة الداخلية الكامنة في نفوسهم إزاء الغرب، هي التي تؤدي بهم إلى هذا التقليد الأعمى: تقليد القرود أو تقليد العبيد!.

وما يمكن لإنسان عاقل، فضلا عن الإنسان المسلم، أن يضع قدمه مختاراً في الهاوية، إلا أن يكون قد أصابه خبل في فكره، أو أصابه المسخ الذي يشوه الفطرة و يفسد طبائع النفوس.

الباب الثاني

الإيمان بالملائكة



الإيمان بالملائكة

الإيمان بالملائكة جزء من الإيمان. فلا يتم إيمان المسلم إلا إذا آمن بوجودهم جملة، وبمن ورد ذكرهم في القرآن والحديث على وجه التفصيل، وبأعمالهم التي كلفهم الله بأدائها.

ووجوب الإيمان بالملائكة وكونه جزءاً من الإيمان وارد في نصوص كثيرة من القرآن والحديث.

فمما جاء في القرآن قوله تعالى:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ سورة البقرة، الآية ١٧٧.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾
سورة النساء، الآية ١٣٦

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ سورة البقرة، الآيتان ٩٧، ٩٨.

وجاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت» إلى أن قال: هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم» رواه مسلم.

ومن أقرب الأسباب لوجوب الإيمان بالملائكة وما يؤدون من أعمال كلفهم الله بها(١) أن الوحي الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم، والذي تلقينا ديننا عن طريقه وصرنا به مسلمين قد نزل به جبريل عليه السلام - وهو واحد من الملائكة المكرمين - على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم. فلا بد للمسلم إذن أن يؤمن بوجود الملائكة وقدرتهم على أداء أعمال معينة كالنزول بالوحي على الأنبياء والرسل ليتم إيمانه بالكتاب الذي يتلقى دينه عنه وهو القرآن.

والله يبين لنا أن خلق الملائكة وتعدد أشكالهم هو من آيات القدرة الربانية:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ سورة فاطر، الآية ١.

ومعرفتنا بآيات القدرة الربانية في شتى مجالاتها يزيدنا معرفة بالله، فنعظمه ونوقره سبحانه بما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، ونعبده حق عبادته، فنفوز برضاه وجنته.

ولا شك أن في عالمنا المحسوس آيات كثيرة تدل على قدرة الله المعجزة، كل منها كفيل

---

(١) بعد النصوص الصريحة الدالة على وجوب الايمان بهم.

بأن يهدى البصيرة المتفتحة إلى عظمة الله . لذلك يوجهنا الله إليها في كتابه الكريم :

وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾

سورة الذاريات: ٢٠، ٢١ .

ولكن إيماننا بعظمة الله وقدرته المعجزة يزداد ولا شك حين نعلم أنه ليس العالم المحسوس وحده هو كل ما خلق الله من كائنات . وأنه هناك عوالم أخرى غير مرئية لنا هي من خلق الله كذلك، وأن فيها من العجائب بالنسبة لتقديرنا البشرى ما يعجز الخيال عن تصوره فضلا عن استيعابه .

فاذا علمنا فوق ذلك أن هذه الكائنات ذوات أجنحة، فإن حسنا ليؤخذ - خاصة بعد أن نعرف مهامها وأعمالها - لأن الكائنات ذوات الأجنحة المعلومة لنا في عالمنا المحسوس من طيور أو حشرات طائرة ، مختلفة تماماً عن هذه الكائنات التي تقوم بأعمال هائلة في السموات والأ رض .

والطيران في الجو حلم قديم من أحلام الإنسان حاوله منذ أقدم العصور ولكنه عجز عنه إلا باستخدام وسائل صناعية كالطائرة والصاروخ . فمعرفة الإنسان بأن هذه الكائنات الهائلة تطير مباشرة بأجنحتها يهز وجدانه بلا ريب، ويجعله يحس - من خلال عجزه - بالقدرة المعجزة التي خلق الله بها هذه الكائنات .

فإذا زاد علمه أكثر من ذلك فعرف أن الملائكة ليسوا على مرتبة واحدة من حيث عدد أجنحتهم، فمنهم ذوو أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، فإنه يزيد تعظيماً لله الخالق الذي يزيد في الخلق ما يشاء وهو على كل شيء قدير .

وإذا عرف بعد ذلك كله أن هذه الكائنات مخلوقة من النور كما روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم» (أى من الطين) فإن عجبه لا يقف عند حد . فالنور كما يراه الإنسان في عالمه المحسوس أشعة تنطلق مستقيمة في الفضاء، لا مريدة ولا عاقلة، ولا تعمل شيئاً غير أن تضيء الجسم الذي تسقط عليه بغير إرادة منها ولا

قصد ! أما أن تكون من هذا النور كائنات تتحرك وتتكلم، وتتشكل بأشكال شتى[1]، وتقوم بأعمال معينة تكلف بها، فأمر وراء إدراك الحس، وإن كان الإنسان يحاول أن يدركه فيما وراء الحس .

وحقيقة أن خلق الله آدم من قبضة من طين الأرض معجزة هائلة يقف الحس أمامها عاجزاً متحيراً، لأن النقلة بعيدة بين قبضة الطين و بين هذا البشر ذى الحواس والإدراك والقصد والإرادة والقدرة على تعمير الأرض واستخدام طاقات الكون المسخرة له من عند الله .

ولكن هذه النقلة على ضخامتها أيسر في حس الإنسان من خلق الكائنات من النور. فالطين على أى حال مادة مجسمة، وجسم الإنسان مادة ماثلة للعيان . أما النور فإنه ليس مادة .. فكيف يكون مادة للخلق إلا أن تكون قدرة الخالق المبدع متجاوزة كل حد يستطيع العقل أن يصل إليه . فتبارك الله أحسن الخالقين .

وحين يأخذ الإنسان حظه من استشعار عظمة الله الخالق المبدع، فإن قلبه يأنس لهذه المخلوقات ترف حوله وتملأ جنبات الكون .

وفرق كبير في حس الإنسان بين أن يكون هذا الكون من حوله خاو ياً موحشاً و بين أن يكون عامراً بكائنات حية، بينه و بينها اختلاف .

فإذا كانت الكائنات الحية في الأرض من نبات وحيوان ـ والحيوان على الأخص بما فيه من الإنسان من أوجه شبه وأوجه اختلاف ـ تؤنس الإنسان وتبهج قلبه، وتنفي عنه الشعور بالوحشة في سكناه لهذه الأرض، فيروح يتأملها و يتملاها، و يفرح كلما لقى واحداً منها على مقر بة منه .

إذا كان هذا يحدث بالنسبة لعالم الأرض المحدود المحسوس، فإنه حرى أن يحدث

---

(١) جاء في حديث جبريل : « عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، و وضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد ! أخبرني عن الاسلام .. » قال: ثم انطلق فلبث مليا ثم قال لي « يا عمر: أتدري من السائل ؟ قلت: الله ورسوله أعلم . قال: « فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » رواه مسلم .

بالنسبة للكون الكبير، ما يقع منه في دائرة الحس وما يقع وراء الحس من آفاق .

وقد رأينا أن الحيوان بصفة خاصة يلفت حس الإنسان، فيروح يعقد المقارنات بين نفسه و بينه، فيجد بعض المشابه من ناحية الجسد و بعض تصرفاته، ويجد اختلافات كبيرة من جانب العقل والروح .

فإذا كانت المخلوقات الطينية تؤنس وحشته في الأرض، فإن تلك المخلوقات النورانية تؤنس وحشته في الكون الواسع الذي هوجزء منه ، فيصبح أروح نفساً وأكثر طلاقة مما لو حبس نفسه في دائرة المادة والحس .

* * *

ثم إن الملائكة مشغولة ليل نهار بالتسبيح للملك القدوس الواحد القهار:

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ سورة الأنبياء، الآية: ٢٠ .

ومن هنا نعرف أن أهم ما يقومون به تسبيح الله وتعظيمه وتنزيهه حيث هيأهم لهذا .

ألا ما أروعها صورة! .

إن الإنسان يحاول أن يسبح لله فترة من النهار أو جانباً من الليل فيفتر ولا يقوى على المضى في التسبيح، لأن له جسداً يريد أن يأكل وأن يشرب وأن يرتاح و ينام . ولأن له فكراً لا يكف عن الانشغال بمطالب الحياة الدنيا .

ومن رحمة الله بالإنسان أن لم يكلفه ما كلف الملائكة من التسبيح الدائب ليل نهار ! فإنه ـ سبحانه ـ وقد خلق للإنسان جسداً يشتهى وعقلا ينشغل بالتفكير، جعل عبادته المفروضة عليه من نوع آخر غيرعبادة الملائكة، فيها التسبيح لله نعم، ولكن بقدر محدود في الصلاة وشعائر التعبد . ولكنه من رحمته بعباده من بنى الإنسان جعل حركة أجسامهم وعقولهم عبادة إذا توجهوا بها إلى الله، والتزموا في شأنها بما أنزل الله . وهكذا أصبح سعى الإنسان وراء الرزق عبادة، وعمارته للأرض عبادة، وطعامه وشرابه عبادة، وزواجه ونسله عبادة، ونومه وقيامه عبادة، إذا ابتغى في ذلك كله مرضاة الله، وعمل فيها وفق أوامر الله .

وكذلك يتم التناسق في خلق الله بين طاقة المخلوق وما كلف به من ألوان العبادة .. وكلهم عبادٌ لله عابدون ! .

نعم ! ذلك من رحمة الله بالإنسان .

ولكن الإنسان مع ذلك ـ من جانبه الروحي الذي يربطه بالملائكة ـ ما يفتأ يعقد المقارنة بينه و بين الملائكة في قدرتهم على التسبيح لله بالليل والنهار لا يفترون .

و يعلم الإنسان أنه لم يكلف بذلك ولا يقدر عليه، ولكن وجود هذا النموذج الرائع أمامه يستحثه على مزيد من العبادة ومزيد من التقرب إلى الله بالأعمال الصالحة وكلما حاول ذلك زادت شفافية روحه وصار أقرب إلى الملائكة الأطهار .

* * *

و يزيد أنس الإنسان بالملائكة حين يعلم أنهم قريبون منه وأن بعضهم يسير معه حيث سار و بعضهم يتنزلون عليه بالسكينة وللطمأنينة كلما أقبل على الله وتوجه إليه في حرارة وإخلاص .

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠﴾

سورة فصلت، الآية: ٣٠

ولقد رأى المسلمون الملائكة في بدر رأى العين. رأوهم يقاتلون معهم الكفار و ينزلون الهزيمة بهم:

﴿۝١١ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢﴾

سورة الأنفال، الآية: ١٢

﴿۝١٢٢ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢٣ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ﴾

ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾

سورة آل عمران، الآيات: ١٢٣ - ١٢٦

وإذا كانت هذه خصوصية لأهل بدر في موقفهم التاريخي الذي مكن للإسلام في الأرض بتأييد من الله، وكتب صفحة من أروع صفحات التاريخ، فإن الله يخبرنا أن الملائكة تتنزل على الذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا، ولو لم يروهم بأعينهم، وإنما علامة حضورهم هي السكينة والطمأنينة التي يحسها هؤلاء، لأن الملائكة تتنزل عليهم: «ألا تخافوا ولا تحزنوا» كما تتنزل عليهم بالبشرى التي تزيد القلب سكينة وطمأنينة: «وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون».

كما يحدثنا القرآن كذلك أن الملائكة تنزلت بالسكينة على المؤمنين في بيعة الرضوان:

هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٤﴾

سورة الفتح، الآية: ٤.

فتنزل الملائكة بالتأييد والتثبيت والطمأنينة والبشرى لم يكن مقصوراً على أهل بدر الكرام، إنما هؤلاء خصهم الله في لحظة شفافيتهم وتجردهم لله وإخلاصهم له وحرارة توجههم إليه بأن يروا الملائكة رأى العين. ولكن المؤمن عرضة في كل لحظة تصل فيها حرارة توجهه إلى الله درجة معينة أن تصافح الملائكة روحه وتسكب في قلبه السكينة والطمأنينة، وأن يحس هذا إحساساً ولو لم ير الملك بعينيه. فأى سعادة أكبر من هذه السعادة، وأى رفعة أجمل من هذه الرفعة؟.

أولا يحب الإنسان أن تكون هذه المخلوقات الشفيفة النيرة قريبة منه، تدفع عنه السوء،

وتسكب في قلبه الراحة والطمأنينة، خاصة إذا كان في موقف الخوف أو الضيق الذي لا مخرج منه إلا بمدد من الله ؟.

وقد تدفعه هذه الرغبة أن يكون في المرتبة التي يستأهل فيها هذا العون وهذه الرحمة من الله، تحملها إليه الملائكة الأطهار، وذلك باخلاص القلب لله والتوجه إليه في حرارة وصدق، يساندها العمل الصالح الذي يتقبله الله .

* * *

وكيف يكون شعور المؤمن حين يعلم أنه حين يقرأ الفاتحة في الصلاة ترد الملائكة تقول : آمين ؟! أوَلا يحفزه ذلك إلى الإحسان في أداء الصلاة حتى تكون جديرة بهذه المشاركة النورانية من جانب الملائكة ؟ .

وحين يعلم أن كل عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله، وكل عمل طيب يعمله، وكل لفظة خيرة يتلفظ بها تحملها الملائكة من توها إلى الله في عليائه، تقول له: ـ وهو المطلع على كل شيء ـ إنِ عبدك فلاناً يتقرب إليك. إن عبدك فلاناً يذكرك و يثنى عليك. إن عبدك فلاناً يحمدك و يشكرك. إن عبدك فلاناً قد أحسن إلى عبد من عبادك. إن عبدك فلاناً قد دعاه الشيطان إلى الشر فلم يجبه.. حين يعلم ذلك كله ألا يحب أن تكثر الملائكة من ذكره عند الله بالخير، فيكثر من صالح الأعمال ؟ .

* * *

وظائف الملائكة

من تمام العلم بهذه الكائنات أن نعرف جملة من الوظائف التي تقوم بها بتكليف من الله .

إن أعمال الملائكة مرتبطة كلها بالحق، ولا شيء غير الحق. فليس فيها زيغ عن الحق لحظة واحدة من ليل أو نهار، كالذي يحدث من عالم الجن أو عالم الإنسان .

فالجن والإنس تحدث منهما المعصية ويحدث منهما الزيغ عن الحق الذي يصل والعياذ بالله إلى حد الكفر والإلحاد. أما الملائكة الأطهار فهم يعيشون للحق وحده ولا يقومون بعمل من الأعمال إلا ما يرتبط بالحق .

١ ـ فأول وظائفهم عبادة الله بالتسبيح له في الليل والنهار دون ملل ولا فتور ولا غفلة، والطاعة الدائمة، والمبادرة لامتثال أمر الله عز وجل، والعبادة الخالصة هي حق الله على خلقه، إذ التوحيد ـ وهو مقتضى العبادة الخالصة لله ـ هو الحق الذي تقوم به السموات والأرض.

يقول القرآن عنهم:

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

سورة الأنبياء: ١٩ ـ ٢٠

﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾﴾

سورة فصلت: ٣٨

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا[1] ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ[2] إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾

سورة الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٨

و يقول عنهم كذلك:

﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ سورة التحريم: ٦

٢ ـ ومن وظائفهم حمل الوحي إلى الأنبياء والرسل، وقد كلف الله بذلك جبريل عليه السلام، ووصفه في القرآن بالروح الأمين. والوحي كلام الله المنزل إلى البشر عن طريق رسله ليتبعوه:

---

(١) أي من الملائكة.

(٢) أي لا يقترحون على الله سبحانه وتعالى، وذلك رداً على زعم المشركين أن الملائكة تشفع لهم عند الله من ذات نفسها.

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾

سورة الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥

وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ(١) فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ(٢) مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾

سورة النجم ٣ ـ ١٠

إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ(٣) ﴿٢١﴾

سورة التكوير: ١٩ ـ ٢١

٣ ـ ومن وظائفهم ـ مع التسبيح والعبادة ـ الاستغفار للمؤمنين عند الله، وهو استغفار بالحق ـ فهم لا يستغفرون إلا لمؤمن ـ وبإذن الله لا من عند أنفسهم:

ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾

سورة غافر: ٧ ـ ٩

---

(١) أي قوة عظيمة. (٢) أي عبد الله اشارة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

(٣) أي بين الملائكة.

٤ ـ ومن وظائفهم تسجيل أعمال البشر، وحفظها .

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ[1] عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ سورة ق: ١٧ ـ ١٨ .

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

سورة الانفطار ١٠ ـ ١٢

فكل إنسان على وجه الأرض، منذ الإنسان الأول إلى يوم تقوم الساعة، قد وكل به اثنان من الملائكة، أحدهما عن يمينه يسجل له ما يقوم به من حسنات، والآخر عن شماله يسجل عليه ما يقع منه من سيئات . وتظل هذه الحسنات والسيئات محفوظة في سجلاتها حتى يأتي يوم البعث، فيحاسب بمقتضاها الإنسان وهو بين يدي مولاه، فإن كان مؤمناً فإن شاء الله عذبه بسيئاته وإن شاء غفر له، وأما إن كان كافراً فمصيره الخلود في النار.

٥ ـ والموت حق . ومن وظائف الملائكة قبض الأرواح حين ينقضي أجلها الذي حدده الله لها:

﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾

سورة السجدة: ١١

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾ سورة آل عمران: ١٤٥

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ سورة الأنعام: ٦١

٦ ـ وانتهاء الحياة في الكون حق . والبعث والقيامة حق . ومن وظائف الملائكة النفخ في الصور ـ بأمر الله ـ مرتين . المرة الأولى يصعق بها من بقي حياً في السموات والأرض إلا من شاء الله . والمرة الثانية يبعث فيها الموتى ليقضى بينهم بالحق:

---

(١) أي الملكان اللذان يسجلان الأعمال .

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٦٩ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٧٠﴾

سورة الزمر: ٦٨ ـ ٧٠

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٧٥﴾

سورة الزمر: ٧٥

٧ ـ ومن وظائفهم الترحيب في الجنة بالمؤمنين الذين فازوا برضوان الله، وتعذيب الكافرين في النار. وكلاهما حق. فقد أخبر الله عباده على ألسنة رسله أنه خلق السماوات والأرض بالحق، وأن مقتضى هذا الحق أن الحياة الدنيا ليست خاتمة المطاف، لأنه لا يتم فيها الجزاء على الحسنات ولا السيئات، إنما يتم ذلك عند البعث في اليوم الآخر، فيحق الحق بدخول المحسنين الجنة ودخول المسيئين النار، فقيام الملائكة بالترحيب بالمؤمنين وتعذيب الكافرين هو تمام هذا الحق الذي خلقت به السموات والأرض:

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ۝٢٤﴾

سورة الرعد: ٢٣ ـ ٢٤

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ۝٧٣﴾

سورة الزمر: ٧٣

---

(١) على قول أنها ملائكة.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾

سورة التحريم: ٦

وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۚ قَالُوا فَادْعُوا ۗ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾

سورة غافر: ٤٩ - ٥٠

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾

سورة الزخرف: ٧٤ - ٧٨

٨ - ومن وظائفهم القيام بأعمال أخرى يأمرهم الله بها، ورد ذكرها في القرآن دون بيان تفصيلي عنها، كقوله تعالى:

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾

سورة الصافات: ١ - ٣

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾

سورة الذاريات: ١ - ٤

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾

سورة المرسلات: ١ - ٦

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝[1] فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝﴾

سورة النازعات: ١ ـ ٥

أثر الإيمان بالملائكة في حياة الإنسان

عرضنا من قبل بعض آثار الإيمان بالملائكة في حياة الإنسان، وقلنا: إن هذا الإيمان:

١ ـ يزيد من استشعار القلب البشري لعظمة القدرة الربانية المعجزة التي تخلق من النور ملائكة ذوى أجنحة مثنى وثلاث ورباع.

٢ ـ يزيد من إيمان الإنسان بالوحي المنزل من عند الله لأن الوحي تحمله الملائكة إلى الأنبياء والرسل.

٣ ـ يزيد من رغبة الإنسان في التقرب إلى الله بالعبادة والعمل الصالح حين يرى نمط الملائكة الذين لا يفترون عن عبادة الله.

٤ ـ يملأ قلب الإنسان أنساً بهذا الكون الرحيب من حوله إذ يعلم أنه معمور بتلك الأرواح النورانية الشفيفة وأنها تتنزل على المؤمنين بالسكينة والطمأنينة.

ومما استعرضناه من وظائف الملائكة نستطيع أن نضيف آثاراً أخرى:

٥ ـ الإقبال على عمل الحسنات والبعد عن عمل السيئات حين يستشعر الإنسان وجود الملكين اللذين يسجلان عليه أعماله.

٦ ـ الانتباه إلى أن هذه الحياة الدنيا فانية لا تدوم، حين يتذكر ملك الموت المأمور بقبض الأرواح حين يتوفاها الله، ومن ثم فلا تستحق هذه الحياة الدنيا أن ينشغل بها الإنسان عن الآخرة، و يكفيه منها المتاع الطيب الحلال الذي أباحه الله.

٧ ـ عمل الحساب للآخرة حين يتذكر الإنسان ترحيب الملائكة بالمؤمنين في الجنة وتعذيبهم للكفار في النار، فيحب أن يكون ممن أنعم الله عليهم بجنته ورضوانه ووقاهم عذاب السموم.

---

(١) هي الملائكة كذلك على أحد الأقوال.

الباب الثالث

الإيمان بالكتب

الإيمان بالكتب

الكتب السماوية التي ورد ذكرها في القرآن هي بترتيبها التاريخي: صحف إبراهيم، والتوراة، والزبور، والإنجيل، والقرآن الكريم.

جاء في ذكر صحف إبراهيم:

قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ سورة الأعلى: ١٤ - ١٩

أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾

سورة النجم: ٣٦ - ٤٢

وذكرت التوراة في مواضع عديدة من القرآن كقوله تعالى:

إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ

سورة المائدة: ٤٤

و يشار إليها أحياناً باسم «الفرقان» كقوله تعالى:

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾

سورة البقرة: ٥٣

وأحياناً باسم «الذكر» كما في هذه الآية التي تشير إلى التوراة والزبور معاً:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

سورة الأنبياء: ١٠٥

وجاء في ذكر الزبور خاصة:

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾

سورة النساء: ١٦٣

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾

سورة الإسراء: ٥٥

وذكر الإنجيل في أكثر من موضع في القرآن:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

سورة المائدة: ٤٦

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾

سورة الحديد: ٢٧

كما جاء ذكر التوراة والإنجيل معاً في هذه الآيات من سورة آل عمران:

﴿الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ سورة آل عمران: ١ ـ ٤

أما القرآن الكريم فقد ورد ذكره في آيات كثيرة إما باسم القرآن وإما باسم الفرقان وإما باسم الكتاب وإما باسم الذكر..

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝﴾ سورة ق: ١

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝﴾ سورة يوسف: ٢

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝﴾ سورة الفرقان: ١

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝﴾ سورة الكهف: ١

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ۝ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝﴾ سورة القلم: ٥١ ـ ٥٢

ثم جاء الأمر الرباني بالإيمان بالكتب المنزلة كلها ـ كما جاء الأمر بالإيمان بالملائكة من قبل ـ وأن هذا جزء من الإيمان، لا يتم إيمان المرء إلا به.

كما جاء الإخبار بأن الكتب السابقة قد حرفها أهلها ولم تعد على صورتها التي أنزلها الله بها.

وجاء الإخبار كذلك بأن القرآن قد نسخ الكتب السابقة كلها، وأن الله تكفل بحفظه من كل عبث أو تحريف .

وجوب الإيمان بالكتب السماوية

يجيء ذكر الإيمان بالكتب السماوية في القرآن في صيغة الأمر تارة، وصفة للمؤمنين تارة أخرى، كما يجيء عدم الإيمان بالكتب المنزلة أو الإيمان ببعضها دون البعض الآخر علامة على الكفر تارة ثالثة .

فمن أمثلة الأمر:

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ سورة البقرة: ١٣٦

كما جاء في صيغة مشابهة له في سورة آل عمران:

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ سورة آل عمران: ٨٤

وقد يجيء الأمر في صيغة مجملة في مثل قوله تعالى في سورة النساء:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ سورة النساء: ١٣٦

أما وصف المؤمنين بأنهم هم الذين يؤمنون بالكتب المنزلة كلها فيجيء في مثل هذه الصيغة:

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

سورة البقرة: ١ - ٤

أو في قوله تعالى:

ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ

سورة البقرة: ٢٨٥

أما وصف الذين لا يؤمنون بالكتب كلها أو الذين يؤمنون ببعضها و يكفرون ببعض بأنهم كفار فيجيء في مثل قوله تعالى:

وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾

سورة النساء: ١٣٦

بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾

سورة البقرة: ٩٠ - ٩١

ومفهوم هذه الآيات وأمثالها، سواء كانت أمراً مباشراً أو وصفاً للمؤمنين أو وصفاً للكافرين، هو أن الإيمان بالكتب السماوية كلها أمر واجب لا يتم إيمان المرء إلا به .

وذلك أمر بديهي بالنسبة للمؤمن . فما دام يؤمن بالله وصدق ما نزل من عنده من الوحي ، وما دام الله يخبره في كتابه الكريم أنه قد أنزل كتباً سابقة على الأنبياء والرسل ، فالواجب أن يؤمن بهذه الكتب المنزلة و يعتقد يقيناً أنها منزلة من عند الله .

ولو شك في هذه الحقيقة أو كذب بها فهل يكون مؤمناً على الإطلاق ؟!
وكيف يكون مؤمناً بالله حقاً وهو يكذب خيراً آتياً إليه من عند الله ؟!
كذلك لو قال إنه يؤمن ببعض الكتب أنها منزلة من عند الله حقاً و يشك أو يكذب أن غيرها من الكتب منزل من عند الله، فهل يكون مؤمناً بالله ولو زعم ذلك ؟

إن من بين دعائم الإيمان التصديق . فكيف يوجد الإيمان إذا كذب الإنسان حرفاً واحداً مما أخبره الله به؟ وما قيمة دعواه أنه مؤمن بالله، أو مؤمن ببعض الكتب التي أنزلها الله؟! إنها دعوى مردودة على صاحبها لأن الدليل العملي يكذبها . .

ثم إن الكتب السماوية كلها تحتوي على حقيقة واحدة، هي الأمر بعبادة الله وحده .
لقد اختلفت الكتب المنزلة في اللغات التي نزلت بها، لأن الله تعالى يقول:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ سورة إبراهيم : ٤

وهذه الكتب نزلت على أقوام مختلفين فاختلفت من ثم لغاتها .
كذلك اختلفت هذه الكتب فيما تحتو يه من شرائع، فالله يخبرنا أنه أنزل شرائع مختلفة للأقوام المختلفين:

﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ﴾ سورة المائدة: ٤٨

ولكن القضية الأصيلة في هذه الكتب كلها واحدة لم تتغير:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾
سورة الأنبياء: ٢٥

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ سورة النحل: ٣٦

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (١)

سورة الشورى: ١٣

كذلك نزلت الكتب كلها لتنذر الناس بيوم الحساب:

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ۝ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝﴾ سورة غافر: ١٥ - ١٧

وما دام الأمر كذلك فالإيمان بالكتب كلها هو كالإيمان بالكتاب الواحد سواء. والقضية عند المؤمن واضحة لا تحتاج إلى جدال. إنما الجدال قد جاء في الحقيقة من أهل الكتاب لأنهم الذين رفضوا أن يؤمنوا بأن القرآن منزل من عند الله. وحساب هؤلاء على الله.

تحريف الكتب السابقة

أخبرنا الله في كتابه المنزل أن أهل الكتاب حرفوا كتبهم، فلم تعد في صورتها التي أنزلها الله بها.

فقد جاء عن اليهود: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ سورة النساء: ٤٦

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ سورة المائدة: ١٣

(١) أي أقيموا الدين لله وحده ولا تعبدوا آلهة متفرقة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ﴾ سورة المائدة: ٤١

وجاء عن النصارى:

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٨﴾ سورة آل عمران: ٧٨

وإذا تدبرنا هذا الأمر وجدنا أن هناك ثلاثة أنواع من التحريف على الأقل قد وقعت في كتب أهل الكتاب، وكلها قد أشار إليها القرآن:

١ - تحريف المعنى مع بقاء اللفظ على ما هو عليه.

٢ - التحريف بالتغيير والإضافة.

٣ - التحريف بالكتمان.

فمن أمثلة النوع الأول من التحريف أن الله قد حرم الربا في جميع كتبه المنزلة التوارة والإنجيل والقرآن. والتوراة التي بين أيدى اليهود اليوم - رغم كل ما حدث فيها من تحريفات شنيعة - ما تزال تحمل نصاً بتحريم الربا! ونصاً بوجوب الأمانة في التعامل مع الناس.

ومع ذلك فاليهود - كما هو معلوم - يتعاملون بالربا على النطاق الدولي، و يسلبون عن طريقه أموال الناس بغير حق، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم:

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۝١٦٠ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٦١﴾ سورة النساء: ١٦٠ - ١٦١

فكيف تحايلوا على النص الموجود في كتابهم، أو بعبارة أخرى كيف حرفوه، ليبيحوا لأنفسهم التعامل بالربا مع الناس وسلب أموالهم ؟! .

لقد قالوا: إن الربا غير جائز في التعامل بين اليهودي وكذلك الأمانة واجبة في تعامل اليهود بعضهم مع بعض .. أما إن كان الذي تتعامل معه من غير اليهود فلا بأس عليك أن تتعامل معه بالربا ولا بأس عليك أن تأكل ماله .. وإلى ذلك يشير القرآن :

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ سورة آل عمران: ٧٥

أي أنهم قالوا: لا حرج علينا في سلب أموال «الأميين» الذين ليسوا يهوداً و يزعمون أن الله أباح لهم ذلك وهم يعلمون أن هذا كذب على الله فإنه حرم عليهم الربا إطلاقاً وحرم عليهم سلب أموال الناس جميعاً، أميين وغير أميين !(١) .

أما التحريف بالتغيير والإضافة فله أمثلة كثيرة .

فأما اليهود فقد أضافوا إلى التوراة مجموعة من القصص والأساطير ما أنزل الله بها من سلطان، بعضها يصل إلى حد الفحش في حق أنبيائهم . وما من نبي من أنبيائهم إلا ألصقوا به سلوكاً لا يليق بالشخص العادي فضلا عن النبي المعصوم . بل إنهم تجرءوا على مقام الألوهية وقالوا في حق الله سبحانه وتعالى كلاماً لا يخرج من فم مؤمن قط ولا يخطر له على بال . وقد ظلوا يرددون هذه الأقوال وغيرها حتى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وسجل عليهم القرآن اثنتين منها على الأقل:

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ سورة آل عمران: ١٨١ - ١٨٢

---

(١) كان اليهود يطلقون على العرب لفظ « الأميين » أى الذين ليس لهم كتاب منزل . وما زالوا يطلقون هذا اللفظ على البشرية كلها من غير اليهود، لأنهم يزعمون أنهم هم وحدهم أصحاب الكتاب الحقيقي ومن عداهم ليس له كتاب ! وأحياناً يسمونهم « الامميين » أى كل الأمم من غير اليهود !

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ سورة المائدة: ٦٤

أما التوراة ففيها أبشع من ذلك في حق الله مما يقشعر بدن المؤمن من نسبته إلى الله عز وجل[1].

أما الإنجيل فيحوى من التغيير والإضافة ما لا يقل سخفاً و بشاعة ولكن في اتجاه آخر، ذلك هو تأليه عيسى عليه السلام والزعم بأنه ابن الله.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ سورة آل عمران: ٧٩ - ٨٠

وأسطورة ألوهية عيسى و بنوته لله وكون الله ثلاثة: الأب والإبن وروح القدس كلها إضافة أضيفت إلى الإنجيل المنزل من عند الله، كتبوها بأيديهم وزعموا أنها من عند الله.

وقد رد القرآن عليهم رداً مفصلا في أكثر من سورة، و بينّ حقيقة التوحيد، وأن عيسى عليه السلام لم يقل إلا كلمة التوحيد:

---

(١) من أبسط الأمثلة على ذلك قولهم: إن الله قد خاف على سلطانه بعد أن أكل الإنسان من الشجرة المحرمة وهي في زعمهم شجرة المعرفة، وخشي ــ سبحانه ــ أن يأكل الإنسان أيضاً من شجرة الحياة فيحيا إلى الأبد! ومن أجل ذلك طرده من الجنة، وأقام حرسة شديدة على شجرة الحياة لكي لا يصل الإنسان إليها! وقولهم أيضا أن الله غضب على بني اسرائيل من كثرة جرائمهم فأقسم أن يهلكهم، فراجعه سيدنا موسى حتى رضي عن بني اسرائيل «وندم الرب الإله على الشر الذي كان ينوى عمله بشعب اسرائيل»!

﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب (116) ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد (117)﴾

سورة المائدة: ١١٦ - ١١٧

ولكن المهم أن أناجيلهم الأربعة المعتمدة (إنجيل مرقص وإنجيل لوقا وإنجيل متى وإنجيل يوحنا([1])) متضاربة بعضها مع بعض في هذا الشأن، مما ينفي أن تكون كلها من مصدر واحد، فضلا عن أن يكون مصدرها هو الله!

وفضلا عن ذلك كله فإن هناك إنجيلا خامساً هو «إنجيل برنابا» منعت الكنيسة تداوله، وأحرقت ما وقع في يدها من نسخه، وهددت من يوجد عنده بإصدار قرار حرمان ضده (أي الحرمان - في زعمهم - من رضوان الله ومغفرته) لأنه يقرر أن عيسى رسول بشر، وليس رباً ولا إلهاً، وأنه بشّر ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم من بعده!.

وأما التحريف بالكتمان فهو على نوعين: كتمان أحكام الشريعة، وكتمان الإشارة إلى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

والقرآن يسجل عليهم أنهم أمروا بعدم الكتمان فعصوا الله.

﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون (187)﴾

سورة آل عمران، الآية ١٨٧.

---

(١) نسبة إلى الرجال الذين كتبوها. وقد كتبوها في أزمنة متفاوتة وبعد مدة من غياب المسيح عنهم، وكلهم كتبها من ذاكرته لا من النص المنزل.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ سورة البقرة: ١٤٦ .

و يسجل عليهم أن الله أخذ عليهم ميثاقاً بأن يؤمنوا بكل رسول يأتي من عند الله مصدقاً لما معهم، كما يسجل عليهم أن خبر بعثة محمد صلى الله عليه وسلم موجود عندهم في التوراة والإنجيل .

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ سورة آل عمران، الآيتان ٧١، ٨٢

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ سورة الصف، الآية ٦

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ سورة الأعراف، الآية ١٥٧

وعلى الرغم من هذه الوصايا كلها لأهل الكتاب فقد عصوا أمر ربهم وكتموا الحق الذي أمروا بإعلانه على الناس .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بيهودي و يهودية قد زنيا، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاء يهود فقال: «ما تجدون في التوراة على من زنى»؟ قالوا: نُسَوِّد وجوههما ونحملهما ونخالف بين وجوههما و يطاف بهما، قال: «فأتوا بالتوراة إن كنتم صادقين» فجاءوا بها فقرءوها حتى إذا مرّوا بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم وقرأ ما بين يديها وما وراءها . فقال له عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : مره فليرفع يده . فرفعها فإذا تحتها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما » رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم .

وإذا كانوا بهذا التبجح في إنكار أحكام الشريعة أمام الرسول صلى الله عليه وسلم وهم يعلمون أنه رسول مؤيد بالوحي ، وأن الوحي يخبره بحيلهم وكيدهم ، فكيف يصنعون مع عامة الناس الذين لا يتنزل الوحي عليهم ليكشف لهم ما خبئوه ؟! .

أما إنكارهم لبعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد اجتهدوا في محو كل ذكر صريح له عليه الصلاة والسلام في كتبهم وأخفوه عن الناس . ومع كل اجتهادهم هذا فقد بقيت إشارات في التوراة والإنجيل لا يمكن تفسيرها إلا بأنها إشارة لمجيء الرسول صلى الله عليه وسلم .

جاء في العهد القديم في سفر أشعياء في الإصحاح الحادي والعشرين:

«وحي من جهة بلاد العرب . في الوعر في بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين . هاتوا ماء لملاقاة العطشان . يا سكان أرض تيماء وافوا الهارب بخبزه، فإنهم من أمام السيوف قد هربوا . من أمام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة . ومن أمام شدة الحرب . وإنه هكذا قال لي السيد: في مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد و بقية عدد قسي أبطال بنى قيدار تقل، لأن الرب إله إسرائيل قد تكلم»(١) .

---

(١) الددانيون اسم قديم لبعض القبائل العربية، وقيدار اسم قديم لقريش . وسكان أرض تيماء إشارة إلى أهل المدينة . والهاربون هم المهاجرون من مكة إلى المدينة . والنص كله يشير إلى نزول الوحى في جزيرة العرب واضطهاد المؤمنين وهجرتهم إلى المدينة ووقوع معركة بدر بعد سنة من الهجرة وضياع مجد الكفار من قريش ومقتل عدد من أبطالهم في المعركة .

وجـاء في الإنـجيل على لسان عيسى عليه السلام: «يأتي من بعدى الفاراقليط». وهذه كـلـمـة يـونـانـيـة معناها الحمد، أى أنها مشتقة من «أحمد» وقد أبوا أن يترجموها في النسخة العربية وأبقوها هكذا لكي تظل غير مفهومة للقارىء ولكيلا يعلم من هذا الذي سيأتي بعد المسيح!

وقد مر الزمن .. ولم يأت بعد المسيح إلا محمد صلى الله عليه وسلم!.

وفي عـام ١٣٦٥هـ (١٩٤٥م) نـشرت صحـيفـة الأهرام المصرية هذا النبأ على إحدى صفحاتها:

«عثر في دير سانت كاترين بسيناء على نسخة قديمة من التوراة جاء فيها ذكر محمد عليه الصلاة والسلام».

ثم اختفت هذه النسخة ولم تعد مرة أخرى إلى الظهور!.

وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾ سورة البقرة، الآية ١٤٦.

﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ سورة البقرة، الآية ١٠٩.

لقد كرم الله إبراهيم عليه السلام حين ابتلاه الابتلاء العظيم فنجح في الابتلاء إذ أمره الله أن يـذبـح ابـنـه اسـمـاعـيـل فـاستسلم لأمر الله واستعد بالفعل للتنفيذ، ففداه الله بذبح عظيم، وكافأ إبراهيم بأن جعله للناس إماماً.

﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾

سورة البقرة، الآية ١٢٤.

وفي لحظة التكريم تطلع إبراهيم عليه السلام أن يظل هذا العهد لذريته من بعده فسأل ربه: «ومن ذريتى؟» فأجابه الله سبحانه: «قال: لا ينال عهدى الظالمين». ومعنى ذلك

أن العـهد يظل في ذرية إبراهيم إلا إذا ظلموا فيؤخذ منهم العهد. ولقد بقى العهد بالفعل في بنى إسرائيل، وهم من ذرية إبراهيم عليه السلام عن طريق إبنه إسحق .

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

سورة السجدة، الآيتان ٢٣، ٢٤

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

سورة البقرة، الآية ٤٧

ولـكـنـهـم ظلموا فنزع الله العهد منهم وأعطاه لفريق آخر من ذرية إبراهيم عليه السلام هـم أبـنـاء إسـمـاعـيـل جد الـنبي صلى الله عليه وسلم . وعندئذ ملأ الحقد قلوبهم وكفروا بـالـرسول صلى الله عليه وسلم بعد ما كانوا يترقبون مبعثه و يستفتحون به على كفار قريش، يـقـولون لهم: سيظهر في جزيرة العرب نبي وسنتبعه ونزداد به عزاً ونقهركم به، ظناً منهم أنه سيكون من أبناء إسحق، فلما جاء من أبناء اسماعيل كفروا به ! .

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾

سورة البقرة، الآيتان ٨٩، ٩٠ .

القرآن نسخ الكتب السابقة كلها

شاءت إرادة الله جل وعلا أن ينسخ الكتب السابقة كلها و ينزل كتابه الأخير لِتبقى في الأرض إلى قيام الساعة .

كان كل رسول من السابقين يرسل إلى قومه خاصة، بينما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم إلى البشرية كافة:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ سورة الأعراف، الآية ١٥٨.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ سورة سبأ، الآية ٢٨.

وكذلك كانت الكتب السابقة تنزل لأقوام معينين بينما أنزل القرآن للناس كافة:

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ سورة القلم، الآية ٥٢

لذلك اقتضت مشيئة الله أن ينسخ هذا الكتاب الشامل الكامل ما سبقه من الكتب جميعاً و يهيمن عليها:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ سورة المائدة، الآيات ٤٨ - ٥٠

ولم يعد يقبل من أحد أن يستمسك بما سبق من الكتب و يرفض القرآن:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ سورة المائدة، الآية ٦٨

وإقامة التوراة والإنجيل بالنسبة لأهل الكتاب المخاطبين بهذه الآية معناها: الإقرار بوحدانية الله، ذلك أن التوراة والإنجيل المنزلين من عند الله يقرران هذه الوحدانية تقريراً جازماً، ولكن أهل الكتاب حرفوهما. فالمطلوب منهم هو إقامتهما مرة أخرى، أى الرجوع إلى أصل التوحيد. ثم إن التوراة والإنجيل قد ذكرا محمداً صلى الله عليه وسلم وأمرا باتباعه عند ظهوره، فإقامتهما معناها الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم وما نزل عليه من وحي .. أى الإسلام.

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ سورة آل عمران، الآية ١٩.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ سورة آل عمران، الآية ٨٥.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» متفق عليه.

* * *

على ذلك يمكن تلخيص موقف المؤمن من الكتب السابقة على هذا النحو:

١ - يؤمن بأن الله أنزل كتباً ورد ذكرها في القرآن هي بترتيبها التاريخي كما يأتي: صحف إبراهيم - التوراة - الزبور - الإنجيل - القرآن.

٢ - وأن هذه الكتب جميعاً تحتوى على حقيقة أساسية واحدة هي وحدانية الله عز وجل ووجوب إخلاص العبادة له بغير شريك، وطاعته فيما يأمر به و ينهى عنه.

٣ - أن الكتب السابقة على القرآن لم يعد لها وجود في صورتها المنزلة لأنها إما ضاعت ولم

يعد لها أثر معروف كصحف إبراهيم، وإما حرفت على أيدى أصحابها كالتوراة والإنجيل .

٤ ـ أن التحريف الغالب كان إما بالتغيير والإضافة وإما بالكتمان. ومن أبرز الإضافات أساطير التوراة وقصة تأليه عيسى وقصة التثليث. ومن أبرز ما كتموه الإخبار عن بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم .

٥ ـ أن مشيئة الله قد اقتضت نسخ الكتب السابقة كلها ما ضاع منها وما حُرّف. وأنزل القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، وناسخاً لكل ما سبق تنزيله من عند الله .

* * *

تولّى الله حفظ القرآن

أنزل الله تعالى القرآن مصدقاً لما بين يديه كما ذكرنا آنفاً وناسخاً له. ثم تكفّل الله سبحانه وتعالى بحفظ كتابه الأخير مما تعرضت له الكتب السابقة كلها من ضياع أو تحريف :

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ سورة الحجر، الآية ٩ .

ولقد ظل القرآن ـ كما أراده الله ـ محفوظاً خلال أربعة عشر قرناً من الزمان، وسيظل باقياً ما شاء الله له أن يبقى، لم يصبه تغيير ولا تحريف. لم ينقص منه ولم يزد عليه حرف واحد منذ أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم .

لقد منَّ الله على هذه الأمة بأن تكون خير أمة في التاريخ .

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾

سورة آل عمران، الآية ١١٠ .

ومنَّ عليها ببعثه الرسول صلى الله عليه وسلم من بينها:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ
وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝١٦٤﴾

سورة آل عمران، الآية ١٦٤ .

ومنَّ عليها كذلك بحفظ الكتاب المنزل إليها ، وعدم تعرضه للضياع والتحريف .

إن التوراة تولاها قوم غضب الله عليهم لأنهم كفروا بالله وقتلوا أنبياءه وعاثوا في الأرض فساداً .

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ سورة البقرة ، الآية ٦١ .

ومن هذه الصفات كلها التي اتصفوا بها عاثوا فساداً في كتابهم المنزل عليهم فمحوا منه ما لم يوافق أهواءهم، وأضافوا إليه أساطير ما أنزل الله بها من سلطان .

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (١)

سورة البقرة، الآية: ٧٩ .

وأما الإنجيل فإن أصحاب عيسى وحوارييه كانوا يعيشون في حالة اضطراب وتشتت بسبب الاضطهاد الواقع عليهم من الدولة الرومانية، فلم يدونوا الإنجيل كما سمعوه من عيسى عليه السلام، إنما تناقلوه، أو تناقلوا ما وعت ذاكرتهم منه سراً وعلى خوف من عيون الدولة الرومانية . فلما بدىء بتدو ينه بعد ثلا ثين عاماً على الأقل من رفع عيسى عليه السلام(٢) كان الأصل قد فقد، وكانت الإضافات الدخيلة هي التي يتناقلها المسيحيون . ثم إن الأناجيل الموجودة الآن ليست هي نص الكتاب المنزل باعتراف أصحابها . إنما هي ذكريات شخصية كتبها كل مؤلف منهم على حدة وضمنها بعض الأقوال المنسوبة إلى المسيح .

---

(١) أى يختلفون كلاما من عند أنفسهم .

(٢) في رواية أنه بدىء بتدو ينه بعد سبعين سنة .

أما القرآن فقد هيأ الله له ظروفاً مختلفة تماماً، تم بها الحفظ الذي قدره الله له منذ الأزل وهو في اللوح المحفوظ :

١ - هيأ له أمة قوية الحافظة بصورة غير عادية. فقد كان العرب في الجاهلية يروون ألوفاً من أبيات الشعر بغير تدوين، إنما يحفظونها في ذاكرتهم ويتداولون روايتها.

٢ - هيأ له سهولة في الحفظ :

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ سورة القمر، الآية: ١٧ .

٣ - هيأ له أمة مستقرة آمنة ممكنة في الأرض، لديها الفرصة الكاملة للحفظ والتدوين، فكان الحفاظ يحفظون على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يتقنوا الحفظ ثم يدونون ما يحفظون ويراجع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه.

٤ - وأخيراً هيأ له مراجعة من الملأ الأعلى. فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحفظ ما يوحى إليه ثم يراجعه على جبريل عليه السلام مرة كل سنة. وفي السنة الأخيرة راجع جبريل القرآن كله على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين.

٥ - ثم إنه بعد تدوينه لم يعد هناك مجال لعبث عابث. بل إن الحفاظ ظلوا خلال القرون يراجعون كل نسخة تكتب من المصحف مراجعة دقيقة. فلما أن صار المصحف يطبع طباعة صارت لجان من كبار الحفاظ تراجع كل حرف منه قبل أن تأذن بطبعه.

وبهذه الوسائل كلها تحقق للقرآن ذلك الحفظ الذي قدره له الله منذ الأزل:

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ

صدق الله العظيم.

مكانة القرآن في نفس المؤمن

للقرآن في نفس المؤمن مكانة ليست لأى كتاب آخر على الإطلاق .

فالقرآن هو كلام الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم، المتعبد بتلاوته . وكفى بذلك تعظيماً في نفوس المؤمنين .

فالمؤمن يعظم ربه ابتداء، فيعظم بالتالي كل شيء يأتيه من عند ربه، فكيف بكلام ربه المنزل، الموجه إليه ليهديه سواء السبيل، و ينير قلبه وطريقه، و يهديه خير الدنيا وخير الآخرة ؟ .

إن الكتاب الذي يصلنى من مؤلف قدير في مادته يكون عزيزا عندى بمقدار ما أعرف عن ذلك المؤلف من مكانة في العلم . فكيف بكتاب رب العالمين القادر المقتدر العليم الحكيم ؟ .

وإن الكتاب الذي يعطيني جزءاً صغيراً من المعلومات، وفي باب واحد من أبواب المعرفة يكون عزيزاً عند بمقدار فائدتي منه . فكيف بالكتاب الذي يحوى الخير كله و يدل عليه ؟ .

وإن الكتاب الذي أعلم أن قراءتي له ترفع منزلتي بين أصحابي يكون أثيراً عندي بمقدار هذه الرفعة . فكيف بالكتاب الذي يرفع منزلتي في الملأ الأعلى، و يرفع منزلتي عند رب العالمين ؟ .

وإن الكتاب الذي يقدمه إليّ أستاذي وأعلم أن قراءتي له ستزيد درجاتي عنده أكون حريصاً على قراءته بقدر ما يزيدني من درجات وعلامات، فكيف بالكتاب الذي تكون تلاوته تعبداً يرفع درجاتي عند الله ؟ .

ولله المثل الأعلى في السموات والأرض .

إنه لا يوجد كتاب في تاريخ البشرية كله نال من المكانة في نفوس أصحابه كما نال القرآن في نفوس المؤمنين .

ولا يوجد كتاب قُرىء وحفظ في تاريخ البشرية بقدر ما قرىء هذا الكتاب، ولا عجب أن سماه رب العالمين «القرآن» فهو الكتاب المقروء، الذي لا تفتر قراءته في ليل أو نهار في صلاة أو ذكر أو حلقة درس أو ترتيل .

وإن علينا ـ إلى جانب القراءة ـ أن نتدبر معاني القرآن، فقد أمرنا بذلك في الكتاب العزيز:

كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾

سورة ص ، الآية: ٢٩

والله يندد بالذين لا يتدبرون القرآن فيعمون عن آياته:

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ سورة محمد، الآية: ٢٤ .

وحين نتدبر القرآن فستتضح لنا معان عدة ينبغي أن نكون على وعى منها:

١ ـ القرآن هو منهج التربية الإسلامية:

فالقرآن هو كتاب التربية الذي ربى هذه الأمة التي وصفها خالقها بقوله سبحانه: «كنتم خير أمة أخرجت للناس» . ومن ثم فإنه يحوى جميع عناصر التربية الصالحة بين دفتيه . ومن ناحية أخرى فإن كل كلمة فيه هي توجيه تربوى لإنشاء «الإنسان الصالح» في هذه الأرض . سواء كان أمراً بعبادة، أو توجيهاً أخلاقياً، أو نهياً عن أمر لا يحبه الله ولا يرضاه لعباده، أو تشريعاً منظماً لحياة البشر، أو قصة من قصص المؤمنين أو قصص المكذبين، أو حديثاً عن اليوم الآخر، ووصفاً لمشاهد الحساب والثواب والعقاب، أو توجيهاً عقلياً لتدبر آيات الله في الكون أو سننه في الحياة .

كلها جاءت في القرآن للتربية والتوجيه . وكان من حصيلة تدبرها على الوجه الأكمل وتنفيذها بالجدية الواجبة أن خرج هذاالجيل الفذ من المؤمنين، صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين استحقوا وصف الله لهم بالكامل، وكانوا بالفعل خير جيل في خير أمة أخرجت للناس .

٢ ـ القرآن كتاب الشريعة:

والقرآن هو كتاب الشريعة المنظمة لحياة البشر على الأرض .

وهو منهج حياة كامل .

فهو لم يدع جانباً من جوانب الحياة البشرية إلا تناوله بما يصلحه و يصلح له، علاقة الفرد بربه . علاقة الفرد بالمجتمع . علاقة الحاكم بالمحكوم . علاقات الأسرة . علاقات الجنسين . علاقات المسلمين بالفئات غير المسلمة داخل المجتمع الإسلامي . علاقة الدولة الإسلامية بغيرها من دول الأرض .

كل شيء في حياة الإنسان تناوله هذا الكتاب المعجز بالتفصيل أو الإجمال[١] .

ومن ثم فلا شيء في حياة المسلم السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الأخلاقية أو الفكرية أو الروحية يرجع فيه إلى مصدر آخر غير هذا الكتاب (وشرحه وتفصيله في سنة الرسول صلى الله عليه وسلم) ولا شيء في حياته يجوز أن يخرج عن تعاليم هذا الكتاب ، مهما استجد في حياته من أمور ! .

لقد أنزل الله هذه الشريعة لتحكم حياة الناس إلى قيام الساعة . فقول القائلين من مرضى القلوب: إن هذه الشريعة قد نزلت قبل أربعة عشر قرناً، فهي لا تصلح للتطبيق اليوم، معناه اتهام لله عز وجل ـ والعياذ بالله من الكفر ـ أنه لم يكن يعلم وقت تنزيل هذه الشريعة أنه ستجد في حياة الناس أمور غير التي كانت وقت نزول القرآن ! أو اتهام له ـ تعالى عن ذلك علواً كبيراً ـ أنه نزل شريعة ناقصة وفرض على الناس ألا يحكموا بغيرها وهددهم على ذلك بالخلود في النار ! .

إنما عرف المسلمون خلال التاريخ أن نظام حياتهم كله موجود في هذه الشريعة، وأن عليهم ـ حين يجدّ في حياتهم أمر ـ أن يستنبطوا له حكماً من الشريعة الثابتة الأركان .

وعرفوا ـ فوق ذلك ـ أن هناك أموراً تركها رب العزة بغير نص، لا نسياناً منه جلت قدرته

---

(١) ما أجمله القرآن فصلته السنة النبوية المطهرة . وهناك أمور متغيرة تجدّ في حياة البشرية يجتهد فيها الفقهاء ولكنهم في اجتهادهم لا يخرجون على أصول الشريعة المبينة في الكتاب والسنة .

ولـكن رحمة منه بعباده، كما أخبر بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم، فهذه يجتهدون فيها بما يحقق مصالح الناس دون أن يخالفوا مقاصد الشرع .

وفي جميع الحالات تكون شريعة الله هي الحاكمة في حياة الناس :

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ سورة المائدة، الآية: ٤٤ .

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ سورة النساء، الآية: ٦٥ .

٣ ـ القرآن مرشد السالكين في رحلة الحياة

والـقـرآن هـو الـذي يـعـرفـنـا حـقيقة الإنسان، ودوره في الأرض، وغاية خلقه . وحدود طاقاته، ومنشأه ومصيره .

بعبارة أخرى هو دليل الرحلة البشرية من مبدئها إلى منتهاها .

إن الـسـائـر في رحـلـة يحتاج إلى دليل يبين له من أين تبدأ وأين تنتهي وأى شيء يجد في الـطـريـق، وأيـن يمضي، وأيـن يتوقف ليتزود بالزاد . فإن لم يكن معه هذا الدليل فإنه يخبط خبط عشواء، ونهايته إلى البوار .

والرحلة البشرية الكبرى في حاجة إلى دليل، يبين للسائر فيها معالم الطريق .

وحين تـضـل الـبـشـريـة عـن دليلها ـ في فترات جاهليتها ـ فإنها تتخبط وتصيبها الحيرة والقلق والضياع، كما يعبر عنها الشاعر الجاهلي المعاصر[١] حين يقول:

جئت لا أعلم من أين، ولكني أتيت ! ولقد أبصرت قدامى طريقاً فمشيت !

ولـيـس أبـلـغ من هذا في التعبير عن الضلال ، وهذه الأزمة تكررت بصورة أو بأخرى في

(١) هو « ايليا أبو ماضي » في ديوان له يسمى « الجداول » .

كل جاهلية من جاهليات التأريخ ، ولكنها أحدّ ما تكون في الجاهلية المعاصرة، التي لا مثيل لها في التاريخ !.

إن الإنسان ليتساءل، بوعى منه أو بغير وعى: من أنا؟ من أين جئت؟ إلى أين أذهب بعد الموت؟ لأى شيء أعيش؟ على أى نهج أعيش ؟ .

وإذا لم يجد إجابة واضحة شافية لهذه الأسئلة التي تخطر على الفطرة فإنه يشقى و يضل، و يتحير ويحس بالضياع .

والله سبحانه خالق هذه النفس البشرية يعلم أن هذه الأسئة تخطر على الفطرة وتحتاج إلى جواب، كما يعلم سبحانه أن طريقة حياة الإنسان في الدنيا، ومصيره في الآخرة مرهونان باهتدائه إلى الأجوبة الصحيحة على هذه الأسئلة أو عدم اهتدائه إليها . لذلك فقد نزل له في كتابه الحكيم إجابة كاملة واضحة لتلك الأسئلة التي يتوقف على إجابتها كل شيء في حياة الإنسان .

عرفه مم خلق أول مرة: من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١
فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢﴾ سورة ص : ٧١ - ٧٢

فعرف من ثم أنه جسد وروح . وأن حياته ينبغي أن تشمل جانب الجسد وجانب الروح، متصلين غير منفصلين، فلا يستغرقه جانب الجسد وحده ولا جانب الروح .

وعرفه مهمته في الأرض:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ سورة البقرة: ٣٠

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ سورة هود: ٦١

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ سورة الذاريات: ٥٦

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾

سورة الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣

فعرف أنه مستخلف في هذه الأرض ليقوم بعمارتها. وأن غاية وجوده هي عبادة الله بمعناها الواسع الذي يشمل شعائر التعبد كما يشمل نشاط الحياة كلها، أي التوجه بنشاط الإنسان كله إلى الله، وسيره فيه بمقتضى أوامر الله.

وعرّفه بالمنهج الذي ينبغي أن يعيش بمقتضاه: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾

سورة البقرة: ٣٨

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

سورة الأعراف: ١٥٨

وأعطاه تفاصيل هذا المنهج في كتاب الله وسنة رسوله.

وعرّفه كذلك بمصيره بعد الموت: إن الحياة لا تنتهي بانتهاء هذه الجولة في الحياة الدنيا، وإلا فهي عبث لا يصدر عن إله حكيم:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾

سورة المؤمنون: ١١٥ - ١١٦

إنه لا بد من البعث والحساب والجزاء لكي ينتفى العبث عن خلق الله، ولكي لا يستوى المحسن والمسيء في نهاية المطاف:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾

سورة ص : ٢٧ - ٢٨

وهو يحاسب في الحياة الآخرة بمقتضى ذات المنهج الذي نزل ليحكم حياة الناس في الأرض :

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

سورة البقرة: ٣٨ - ٣٩

ثم يكون الجزاء هو الخلود في الجنة أو النار:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

سورة النساء: ٥٦ - ٥٧

وهكذا يعطيه القرآن دليل الرحلة كاملا من بدء الرحلة إلى منتهاها، و يبين له كل معالم الطريق .

٤ ـ القرآن يدعو إلى تدبر آيات الله في الكون:

والقرآن يوجه أنظارنا ـ بصورة ملحوظة ـ إلى تدبر آيات الله في الكون: في السموات والأرض، والشمس والقمر، والجبال والبحار، والنبات والحيوان.. وكل ما يقع عليه الحس من كائنات.

يوجه أنظارنا إليها لنتعرف على قدرة الله المعجزة في الخلق والتدبير، فنؤمن بالله ونعبده حق عبادته:

ألم تر أن
الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل قد علم
صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون ﴿٤١﴾ ولله ملك السموات
والأرض وإلى الله المصير ﴿٤٢﴾ ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه
ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من
جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء
يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴿٤٣﴾ يقلب الله الليل والنهار
إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴿٤٤﴾ والله خلق كل دابة من
ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم
من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴿٤٥﴾
لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴿٤٦﴾

سورة النور: ٤١ ـ ٤٦

و يوجه أنظارنا إليها لنتعرف ـ في ذات الوقت ـ على السنن الربانية التي يجرى بمقتضاها نظام هذا الكون، لكي نحقق ـ بالعلم ـ استغلال الطاقات الكونية المسخرة لنا أصلا من عند الله:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ سورة الجاثية: ١٣

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾

سورة إبراهيم: ٣٢ - ٣٣

فهذه الطاقات الكونية مسخرة من عند الله للإنسان. نعم. ولكنها تحتاج لأن يتعرف الإنسان على السنن التي تجري بها لكي يستغلها في عمارة الأرض.

والقرآن يوجهنا إلى هذه المعرفة التي توصلنا إلى استغلال ما سخر لنا من الطاقات:

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

سورة الإسراء: ١٢

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ سورة البقرة: ١٨٩

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ﴾

سورة الملك: ١٥

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ(١) وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ سورة الحديد: ٢٥

---

(١) أي قوة وصلابة.

و يقول عن نبي الله داود:

﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾[1] سورة سبأ: ١٠

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ﴾[2] سورة الأنبياء: ٨٠

ومن هذه التوجيهات وغيرها في القرآن اتجه المسلمون إلى العلم، وإلى العلم التجريبي خاصة، فأنشئوا المنهج التجريبي في البحث العلمي، الذي تقوم عليه النهضة العلمية الحاضرة في أوروبا، بعد أن تعلمت أوروبا ما تعلمت في مدارس المسلمين. ومن قبل ذلك كان العلم على يد اليونان علماً نظرياً بحتاً لا يؤدي إلى تقدم كبير.

٥ ـ وتدبر السنن التي تحكم حياة الإنسان:

و يوجه القرآن أنظارنا كذلك إلى السنن الربانية التي تجرى بها حياة البشر على الأرض، لنتعرف على هذه السنن ونقوّم حياتنا بمقتضاها، لأنها سنن ثابتة لا تتغير ولا تتبدل:

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ سورة فاطر: ٤٣

فمن هذه السنن أن المؤمنين حين يستقيمون على أمر الله يستخلفهم ويمكن لهم في الأرض ويمنحهم الأمن والطمأنينة، و يبارك لهم في حياتهم كذلك:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ سورة النور، الآية: ٥٥.

---

(١) إشارة إلى السلاح الذي يصنع من الحديد الصلب و يستخدم في القتال.

(٢) إشارة إلى الدروع التي تستخدم في الحرب.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾

سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

ولكن الكافرين ليسوا ممنوعين من التمكين في الأرض ولكن على وجه آخر:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾

سورة الإسراء، الآيات ١٨ ـ ٢٠

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

سورة هود، الآيتان ١٥، ١٦.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾

سورة الأنعام، الآية: ٤٤.

فالمؤمنون يمكنون في الدنيا لإصلاح الأرض، ثم تكون لهم العاقبة الحسنة في الآخرة فينعمون بالجنة والرضوان:

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾

سورة الحج، الآية: ٤١ .

أما الكافرون فيمكنون ابتلاء وفتنة، وحين يوغلون في البعد على الله تفتح عليهم أبواب القوة والاستمتاع وتنهال عليهم الأسباب . لا رضاً من الله عليهم بل ليزدادوا إثماً ثم ليأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر:

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

سورة يونس، الآية: ٢٤ .

كذلك فإن التمكين للمؤمنين يختلف عن التمكين للكافرين من وجه آخر . فالمؤمنون يمنحهم الله « بركات من السماء والأرض » فيعيشون في أمن وطمأنينة و بركة في الوقت والصحة والأموال والأولاد .. أما الكافرون فيفتح عليهم أبواب كل شيء « من الرزق المادي ، ولكن بلا بركة ولا أمن ولا طمأنينة ، لأن الطمأنينة إنما تجيء من ذكر الله وهم لا يذكرون الله »:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾

سورة الرعد، الآية: ٢٨ .

ومن السنن الربانية كذلك أن أعمال البشر من سيئة أو حسنة تترتب عليها نتائج حتمية لا يمكن تغييرها، لأن سنة الله لا تحابى أحداً، ولا تتغير مجاملة لأحد:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾

سورة الروم، الآية: ٤١ .

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ سورة الإسراء، الآية: ١٦ .

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

سورة الأنفال، الآية: ٥٣ .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

سورة الرعد، الآية: ١١ .

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾

سورة محمد، الآية: ٣٨ .

والنتائج تترتب بقَدَر من الله . ولكن الله يخبرنا أنه يجرى قدره في الأرض بحسب ما يكون من سلوك الناس .

٦ - معرفة الأحداث التاريخية الكبرى :

ومن تتبعنا لسنة الله التي يجرى بها في حياة الناس نستطيع أن ندرك الأحداث الكبرى في التاريخ، ونستطيع كذلك أن نقدر حاضرنا الذي نعيش فيه، وأن نزن تطلعاتنا إلى المستقبل بميزان الواقع .

فمن أحداث التاريخ الكبرى تمكين الأمة المسلمة في الأرض فترة طويل من الزمن وفي رقعة فسيحة من الأرض، حين كانت مستقيمة على أمر الله، تحقيقاً لوعد الله بالاستخلاف، والتمكين والتأمين للذين آمنوا من هذه الأمة وعملوا الصالحات، قيام هذه الأمة في فترة استخلافها بنشر الخير في ربوع الأرض وإقامة العدل الرباني في أرجائها .

ومن أحداث التاريخ الكبرى كذلك انحسار المد عن الحركة الإسلامية، سواء السياسية أو العسكرية أو الاقتصادية أو العلمية أو الحضارية حين تخلى المسلمون عن رسالتهم التي

أهلّهم الله لها، وهي أن يكونوا رواد البشرية وقادتها بعد أن يستقيموا هم أنفسهم على أمر الله. فلما انحرفوا عن طريق الله وتخلوا عن حقيقة إسلامهم لم تجاملهم سنة الله، ولم يغنهم أنهم من ذرية قوم مؤمنين:»

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾
سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

ومن أحداث التاريخ الكبرى أن أوربا - وهي أمة أو مجموعة من الأمم الجاهلية لا تؤمن بالله ورسوله ولا تحكم بما أنزل الله - قد مكن لها في الأرض، وفتح عليها أبواب كل شيء: في السياسة والحرب والمال والقوة العلمية والعملية.

وكثير من الناس ينبهر بهذا السلطان الذي أوتيته أوربا، وبهذا التمكين، ويظن أنه مخالف لسنة الله! ولكن تدبر آيات القرآن يرينا أنه لا شيء مما حدث في التاريخ يجرى مخالفاً لسنة الله، ولا يمكن أن يحدث ذلك قط:

فالذي حدث:

أولا: أن هذه الأمة أو الأمم الجاهلية قد مكنت في الأرض بعد أن تخلت الأمة المسلمة عن دورها، ونتيجة لهذا التخلي من جانب المسلمين تمكنت هذه الدولة الكافرة.

ثانياً: أن هذه الأمة حين مكنت انتشر الفساد في الأرض «بما كسبت أيدى الناس».

ثالثاً: أن هذا التمكين الذي يعبر عنه القرآن بقوله: «فتحنا عليهم أبواب كل شيء» تنقصه البركة التي لا تعطي إلا للمؤمنين حين يمكنون في الأرض، وليس فيها الطمأنينة التي تأتي من ذكر الله. إنما فيها الأمراض النفسية والعصبية والجنون والانتحار والجريمة والقلق والاضطراب والحيرة والضياع.. وكلها كما تقول إحصاءاتهم آخذة في الازدياد.

رابعاً: أن حضارتهم الجاهلية في سبيلها إلى الانهيار بحسب سنة الله كما ترى العين الفاحصة من وراء صور التقدم المادي الذي يبهر العيون، وكما يقول مفكروهم أنفسهم. ولكن هذا الانهيار لا يحدث بين يوم وليلة، لأن الله يقول:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ سورة الحج، الآيتان ٤٧، ٤٨ .

ذلك بالنسبة لرؤية الماضي والحاضر على ضوء السنن الربانية التي أمرنا الله أن نتدبرها ونحن نقرأ القرآن .

أما بالنسبة لتطلعاتنا نحو المستقبل، فنحن نتطلع لأن نستعيد ما فقدناه من القوة والاستخلاف والتمكين والتأمين . وذلك من واجبنا، لأن الله تعالى لم يخرج هذه الأمة لتكون في وضع الاستخذاء والضعف، ولا الذلة ولا الهوان :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾

سورة الأنفال، الآية: ٦٠ .

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾

سورة المنافقون، الآية ٩ .

ولكن هذا الأمر لا يتم بالتمني . ولا يتم حتى يغير الناس ما بأنفسهم . ولا يتم دون جهد يبذل ودون جهاد:

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾

سورة النساء، الآية: ١٢٣ .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ سورة الرعد، الآية: ١١ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾

﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ سورة التوبة، الآيتان ٣٨، ٣٩ .

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ سورة النساء، الآية: ٧٦ .

فحين يريد المسلمون أن يستعيدوا مكانتهم في الأرض فهذا هو الطريق ! .
وهذا الذي نتعلمه من سنن الله ونحن نتدبر القرآن .

* * *

مقتضى الإيمان بالقرآن :

إن الإيمان بأن القرآن هو كلام الله المنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، يقتضي أن تكون له آثار واقعية في حياتنا .

يقتضي أولا أن نعيش معه ونتعبد بتلاوته وحفظه . فالقرآن ينبغي أن يكون هو الصاحب والأنيس قبل أى صاحب آخر أو أنيس .

يكفي أن يستشعر المؤمن في قلبه أن الله يخاطبه هوشخصياً بهذا القرآن، رجلا كان أو امرأة، فتى كان أو فتاة . وأن الله في عليائه يهتم بشئون البشر الذين خلقهم، فلا يتركهم ضياعاً، ولا يتركهم سدى . إنما يرسل لهم الهدى والنور، و يتعهدهم بالرحمة والفضل .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ سورة النساء، الآيتان ١٧٤، ١٧٥ .

يكفي أن يستشعر أنه هو شخصياً موضع نظر الله وعطفه ورحمته:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾
سورة البقرة، الآية: ١٨٦ .

وأنه أقرب ما يكون إلى ربه وهو قائم وساجد لربه يصلي ، وكذلك وهو يتلو القرآن تعبداً وتدبراً وتقرباً إلى الله .

والحياة مع القرآن تستجيش الحس، وتفتح القلب، وتمنح الروح شفافيتها لأنها تعيش مع النور الرباني المنزل في الكتاب، فيخف الإنسان من ثقلة الجسد وجذبة الأرض، ويرفرف ـ ولو ساعة ـ مع الملائكة الأطهار .

* * *

ويقتضي ثانياً: أن نربي أنفسنا بهذا القرآن .

فالقرآن ـ كما ذكرنا ـ هو كتاب التربية الشامل الذي أخرج الأمة التي كانت «خير أمة أخرجت للناس» .

وحين نقرؤه أو نحفظه للتعبد، فإننا في ذات الوقت نقرؤه لنصوغ أنفسنا بحسب أوامره وتوجيهاته .

سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: «كان خلقه القرآن» ! وهي جملة بليغة على إيجازها، تعني أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان هو الترجمان الصادق لكل ما جاء في القرآن من أوامر وتوجيهات .

ولن يستطيع أحد من البشر ـ مهما اجتهد ـ أن يكون مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن الله يأمرنا بأن نتخذ منه الأسوة الحسنة:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾

ثم قال لنا من رحمته سبحانه:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ سورة التغابن، الآية: ١٦ .

فواجبنا إذن أن نحاول ـ ما استطعنا ـ أن نربي أنفسنا بالقرآن ونحن نحفظه ونتلوه .

ولنعلم أن أداة التربية العظمى في هذا الكتاب هي العقيدة .

العقيدة الصحيحة الراسخة كانت هي الأداة الأولى لتربية هذه الأمة الفذة في التاريخ، وبصفة خاصة ذلك الجيل الأول الفذ الذي صنعه القرآن على يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان قمة لا يدانيها شيء في تاريخ البشرية كله .

والعقيدة ليست كلمة تقال باللسان: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله .. وإنما هي واقع يعاش، ومنهج كامل للحياة .. إنها حياة كاملة في ظل الله تستمد من أوامره وتوجيهاته، وتعمل بمقتضاها في واقع الأرض .

وإن المساحة العظيمة التي يشملها الحديث عن العقيدة في كتاب الله لم تكن من أجل هذه الكلمة التي تقال باللسان، وإنما من أجل أن تتحول إلى عمل مشهود في عالم الواقع، وتترجم إلى وجدان وسلوك :

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ سورة الرعد: ١٩ - ٢٢

ولنعلم كذلك أن أسماء الله الحسنى وصفاته وأعماله الواردة في كتاب الله في معرض الحديث عن العقيدة لم تتنزل لنحولها إلى أمور جدلية عقيمة كما فعلت الفرق الضالة الشاردة في تاريخ الإسلام . إنما نزلت للتعريف بالله سبحانه وتعالى والإيمان بها واثباتها

كما جاءت من غير تحريف ولا تأو يل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل، يجعل المؤمنين يتر بون على حقائق الإيمان الموروث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الأخيار.

حين يقول الله سبحانه وتعالى: «إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين» فهو يعرفنا ـ من ناحية ـ بخصيصة من خصائص الألوهية، هي أن الله ـ وحده ـ هو الرزاق دون شريك يشاركه في الرزق. وهو يربينا ـ من جهة أخرى ـ على هذه الحقيقة الإيمانية لنوقن ـ في السراء وفي الضراء سواء ـ أنه لا أحد على الإطلاق يملك قطرة واحدة من الرزق، لا أن يزيدها ولا أن ينقصها ولا أن يقطعها سوى الله. ومن ثم فلا يجوز لنا أن نتوجه لغير الله في طلب الرزق، ولا يجوز لنا أن نميل عن قولة الحق حفاظاً على الرزق أو نتبع أحداً من الظالمين ـ بالباطل ـ خشية أن يقطع عنا الرزق، لأن شيئاً من ذلك لا يتم بأيدي البشر في الحقيقة إنما يتم بتقدير الله، وإن كان البشر ـ في الظاهر ـ هم الذين يصنعون هذا أو ذاك.

والتربية على العقيدة أمر غير مجرد المعرفة النظرية بحقائق العقيدة، فكثير من الناس إذا قلت له إن الله هو الرزاق وحده قال: نعم! فإذا تعرض لمحنة أو ضيق أو هدد في رزقه تزلزلت هذه الحقيقة من قلبه لأنها لم تكن راسخة بالفعل .. لم تكن تحولت إلى يقين، وإلى سلوك مبنى على ذلك اليقين!.

وكل صفات الله وأسمائه وأفعاله واردة في القرآن على هذا النحو، للتعريف بحقيقة الألوهية، وللتربية على حقيقة الإيمان، وأن الله هو الضار النافع. المحيى المميت. القابض الباسط .. كلها ينبغي أن تتحول في قلوبنا إلى يقين، ثم تتحول في حياتنا إلى سلوك مبنى على هذا اليقين، وعندئذ نكون تربينا ــ كما تربت الأمة المسلمة الأولى ــ على حقائق الإيمان الواردة في القرآن.

* * *

و يقتضي ذلك أن تتحول حياتنا كلها إلى واقع إسلامي، في كل منحى من مناحى الحياة.

فكما ينبغي أن يستقيم سلوكنا الشخصى على مقتضى كتاب الله، من صدق وأمانة ونظافة وتطهر، و بعد عن الإثم والبغي:

﴿١٥٠﴾ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ سورة الأنعام: ١٥١ - ١٥٣ .

كذلك ينبغي أن يكون القرآن هو منهج حياتنا العامة إلى جانب حياتنا الفردية، لأن الإسلام لا يفرق بين الفرد والمجتمع في الالتزام بأوامر الله .

فالحكم ينبغي أن يكون بشريعة الله .

وتعاملاتنا الاقتصادية ينبغي أن تكون في حدود ما حلل الله .

وصلاتنا الاجتماعية ينبغي أن تكون محكومة بأوامر الله . في داخل الأسرة وخارجها . في علاقات الجنسين . في علاقات الناس بعضهم ببعض . فيما يحل للمرأة أن تبديه من زينتها، وما يحل للرجل من نظر أو كلام .

والأفكار التي نتعلمها والتي نبثها ينبغي أن تكون متمشية مع مفاهيم الإسلام وتوجيهاته، غير متعارضة مع شيء ألزمنا الله به في كتابه الحكيم .

و بذلك نكون حقاً أمة القرآن . . .

والله الموفق إلى ما فيه الخير.

الموضـــوع	الصفحة
المقدمة	٣
الباب الأول «الانحراف عن الايمان والتوحيد»	٥
الشرك . اسبابه ودوافعه	١٢
انواع الشرك	٢٧
(١) شرك التقرب والزلفى	٢٩
(٢) شرك طلب الشفاعة من غير الله	٣١
(٣) شرك الطاعة والا تباع	٣٤
(٤) شرك المحبة والولاء	٣٩
(٥) شرك الرياء	٤١
آثار الشرك	٤٦
(١) من آثار الشرك اطفاء نور الفطرة	٤٦
(٢) من آثار الشرك القضاء على منازع النفس السامية	٤٧
(٣) من آثار الشرك القضاء على عزة النفس	٤٨
(٤) من آثار الشرك تمزيق وحدة النفس البشرية	٤٩
(٥) من آثار الشرك احباط العمل	٥١
(٦) من آثار الشرك خلود صاحبه في النار	٥٣
الالحاد أسبابه ودوافعه	٥٥
دور الكنيسة الأوربية في افساد النصرانية المنزلة من عند الله	٥٦
موقف الكنيسة من العلم	٥٨
طغيان الكنيسة ورجال الدين	٦٠
الرهبانية	٦١
قيام النهضة في أوربا على غير أساس من الدين	٦٢
دور اليهود في افساد الحياة الاوربية	٦٣
مسئولية المسلمين عن الفساد الحادث في الأرض	٦٤
قضية الالحاد لا تقوم على أساس من العقل ولا العلم	٦٧
آثار الالحاد في واقع البشرية المعاصر	٧٠
(١) من آثار الالحاد القضاء على القيم الروحية والمثل العليا	٧٠
(٢) من آثار الالحاد الاخلال بالتوازن في حياة الانسان	٧٢
(٣) من آثار الالحاد القضاء على وازع الضمير	٧٣

راجعه وصححه

محمد حمد الشدي

مدير وحدة الكتب المدرسية